
أنور الجندي
هذا كتاب مصور قابل للبحث والنسخ
مصابيح على الطريق

مصابيح على الطريق

أنور الجندي

— ١ —

هما مرحلتان كبيرتان فى حياة كل « مفكر » حتى يبلغ عتبة الأربعين : السفح والتصعيد . أو هما مرحلتا : الامتداد العرضى ، والامتداد الأفقى ، فهو فى المرحلة الأولى يكتشف نفسه ، يندفع فى كل مكان ،وراء كل بريق . يعجب بكل زهرة ، يحفل بكل نغمة ، يحاول أن يقلد هذه أو تلك ، يتخبط فى اضطراب وقلق ، لا يدرى فى أى تيار يسير ، أو أى هدف يقصد ؟ .

ربما وجد عاطفته تسبق عقله ، وهواه ينتصر على هداه ، ربما وجد قلبه يخفق لكل جميل دون أن يدرى ماهو الجمال ، فيندفع وراء المطامح قبل أن يحدد غرضه أو يتبين غايته .

وفى خلال بضعة عشر عاما يجد أنه قد وصل إلى حافة الطريق ، يحس بأنه قد اكتشف نفسه ، عرف الوتر الذى يعزف عليه ، وجد الشىء الغائب، ذاك الذى كان غامضا فى أعماقه ، وقد بدأ فى صورة تطلع إلى الحب والمجد والجمال !

أنها ثلاثة أضواء كاشفة ، تغمر نفسه وتصارعه : يريد كل منها أن يصرعه أو يملكه أو يهلكه !

فإذا كانت هذه المرحلة الطويلة من الصبا والشباب قد قضاها المفكر فى الريف بين أحضان الطبيعة حيث الحياة الهادئة البسيطة، يقرأ ويفكر ويتطلع إلى المدينة ويطول به التطلع والانتظار ، فإذا بلغ المدينة أحس أنه قد حقق غاية مناه ، وأنه على الطريق من السفح إلى القمة .

ما أشق « التصعيد » إذا كان على طابع مثالى يكره الانتهازية وينفر من النفاق.. ربما بدأ الطريق أمامه طويلا وربما طبع « التصعيد » فى أعماقه ملامح عسيرة ، بل ربما كان طابعه الأصيل من استقامة ووضوح وصراحة حائلا دون بلوغ القمة ، ربما جعل طريقه إليها عسيرا ، بيد أن ذلك من شأنه أن يجعل خطوه ثابتا قويا . ولطالما صعد ناس إلى القمة فى سرعة . ولم يحتملوا قسوة صقيعها ، فاندفعوا من الناحية الأخرى عائدين إلى الوراء .

وفيما بين الثلاثين والأربعين تأتى مرحلة الامتداد الأفقى ، وإذا كانت مرحلة التصعيد إلى القمة شاقة عسيرة فإن كثيرين بلغوها فى وقت يسير ، ولكنه بقدر ما تكون الأناة والتمهل تكون الاصالة بما يمكن الصمود من فوق القمة الباردة . .

والأربعون هى علامة النضج فى المفكر الذى أمضى أيامه شقيا بها ، بل هى بداية تفتح البرعمة التى طال بها الانطواء .

والمرأة والمال والمجد : تكون أداة الصراع خلال هذه الفترة الطويلة على درجات ومراحل وأساليب ، فالى سن الثلاثين تكون هناك انطوائية عجيبة تغلب فيها روح الدين والعزوف عن متاع الحياة ، ثم لا تلبث الدنيا

أن تضطرب ، فإن المفكر الذى قيده الريف سرعان ما يندفع فى المدينة ليعوض القديم ، فيرتطم ويعرف القيود والأغلال ... هنالك فى رحلة الصحراء الطويلة والوحدة المجهدة ، يتحول اسلوبه أو تتغير مفاهيمه وقد يبدأ من جديد ولكنه يظل مؤمنا بقيمه الأساسية التى قلما تقبل التحلل أو الانحدار .

هنالك يندفع فى الحياة ويوغل فيها وراء مطامع المجد والمال والحب ، معوضا عن حياة اليفاعة والشباب المنطوية التى وقفتها طبيعة التربية الريفيية المقيدة .

وتكون المطامع فى الحب أول أمرها ، فيها اندفاع وبساطة وسطحية أزاء عمق المرأة ومكرها وتلونها كالحرباء .

ثم تعود التجربة بعد التجربة بالأناة ومقابلة المكر بمكر مثله ، ومواجهة خداع الأيدى الناعمة بالوقاية منه والتحرر من أحابيله ، ربما عصرت التجربة نفسه وتركت آثارها وعقباتها .

كان المجد والمرأة على صراع دائم فى أعماقه . ترى أيهما له الغلب ، كل منهما يدفعه فى طريق ، أما هو فأحيانا يميل نحو الحب حتى يكاد ينسى هدفه فى الأدب والفكر ، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى نداء المجد .

لقد كان يظن أن المرأة تستطيع أن تعطيه قوة الاندفاع فى ميدان الفكر ، ولكنه كان مخدوعا عندما ظن أن المرأة تلهم المفكر أو الفنان بالعطاء ، لقد تبين له من بعد أنها لا تلهمه بالعطاء ، بل بالصد والحرمان والهجران .

لكن هل حققت الأربعون أمله الذى كان يرنو إليه فى مطلع الصبا ؟ .

كان ذلك منذ عشرين عاما أو أكثر . فى سن السابعة عشرة ، عندما بدأ يتلفت من حوله فيرى الحياة والأمل والحب . . ويتمنى !

هى مرحلة شاقة عسيرة فى حياته لأنها فترة الكفاح الضخم القاسى . لقد اندفع فى الطريق لا ينظر إلى الوراء ! وحقق كثيرا من الانتصارات ، ولكنها ليست الانتصارات المستمرة ، إنها أشبه بالشهب . تضىء وتلمع ثم تنطفىء ، وتمضى فترة لتتألق مرة أخرى . . إن حياته تسير بين الظلمة والضوء ، بين اللمعان والانطفاء ، بين اليقظة والهمود . لمحات خاطفة من حياة طويلة . بسمات سريعة فى حياة منقبضة ، لا يرجع انقباضها وآلامها إلى أنها لا تجد ما تريد ، بل لأنها تريد ما لا يمكن .

إن طموحها يجعلها تستقل كل ما تصل إليه من نصر وتستصغر ما يتحقق لها من أمل وتضيق بالزمن البطىء الذى يحول بينها وبين بلوغ ما تريد ، فهى لذلك لا ترضى عن يومها وتطمع فى الغد ، الذى ربما يأتى بالجديد .

وهى فى سبيل غايتها لا تضحى بالوسيلة مهما طال بها الانتظار ، أو تأخر النصر . أنها تجعل من قيمها الواضحة سبيلها . والقيم لا تحقق الوصول السريع ، غير أنها تصر على التمسك بها ، وتصمم على أن تكون أداة النصر الوحيدة مهما طال الطريق أو وقفت فى وجهها العقبات أو إعترضتها الصخور .

إنه يعلم أن البريق الذى يخطف الأبصار ينطوى سريعاً ، ولا يبقى إلا العمل الواضح . وأن الاعتماد على سناد الشفاعات ومسخ الشخصية والنفاق وحمل القماقم قد يحقق الوصول ولكنه لا يحقق الاصالة . ولا عبرة بالنتائج دون الثقة بنقاء الطريق إليها .

إن هذا الوصول لن يكون أصيلا إلا إذا قام على جهاد صحيح تبذل فيه الجهود ، وتقذى فيه العيون ، وتنفق فيه عصارة الروح والدم والاعصاب .

إنه قابع منذ عشرين عاما فى صومعته يصل إليها فى الأصيل فلا يغادرها إلا قريبا من منتصف الليل ، ليس حوله إلا ورق وكتب وأحبار ومراجع ووثائق وجذاذات . يكتب ويقرأ ، عازفا عن كل رغبة ، منصرفا عن كل لذة ، لا يكاد يرى بل يسمع بليل القاهرة الضاحك الراقص المضىء المتأرجح ، كأنما قد نذر نفسه راهباً فى معبد الفكر .

قد تكون هذه لذته ، ولكنه يضيق بها بين آن وآن ، فيوشك أن يحطم هذا المعبد ويخرج منه منذراً بأنه لن يعود إليه ، ولكنه إذا مضى فى الحياة ، يريد أن يجدد حياته بالسمر أو يغذى روحه بالمتاع ، وجد نفسه كالأعمى التائه وسط الزحام ، وأحس بأنه الغريب الذى لا يعرفه أحد ، وإذا هو عائد مرة أخرى إلى صومعته منفقا أعصابه وروحه وشبابه بين هذه الأوراق والمراجع ، يكتب ويراجع ويقرأ ، وينشر بين الحين والحين

كتابا ضخما ، قد لا يجد ما هو أهل له من التقدير ، ذلك أن الأسفار التى تلقى مزيدا من الرواج ، إنما هى تلك المسرفة فى الاستجابة لرغبات الناس ، أو المصورة لأهامهم ، المدهدهة لعواطفهم ، الـكاشفة عما وراء غرفهم المغلقة . أما تلك التى تهدى وترفع وتتسامى بالنفس الإنسانية إلى الخير والحب والنور ، فإنها لا تجد إلا صفوة من القارئين ، هم قلة ليس لصوتهم صدى ، ولا لرأيهم مكان . .

- ٢ -

عندما ينظر إلى مطالع حياته فى الريف يجد صورة بسيطة ساذجة ليس فيها كلفة أو تعقيد، بدأت فى ريف كالحضر وحضر كالريف ، على حافة مدينة من مدن الصعيد الأدنى إلى القاهرة ، يطالع الطرف أول ما يتجه إليها السهول الخضراء الممتدة حتى تنتهى بشريط السكة الحديد ، فإذا جاء موسم الفيضان تحولت إلى بحر عريض له منظره الاخاذ المتجدد فى كل لحظة من لحظات اليوم ، وفى الليل له رهبته الداجية حيث تضرب موجاته فى جدار بيتهم ، وتتجاوب أصوات الضفادع فى معركة متصلة حتى مطلع الفجر .

لعل جمال « ديروط » التى تحيط بها الترع والأنهار إحاطة السوار بالمعصم ، كانت بعيدة الأثر فى نفسه وتكوينه .

كان جو ديروط بروعته الآسرة وقناطره التى ولد على ضفافها وولد « حافظ ابراهيم » ومنظر المياه وهى تتدفق من « الابراهيمية » وتتجه شمالا وينفصل عنها « بحر يوسف » الذى كان يجرى أمام مدرسته ، وأشجار التوت التى كان يرجمها طفلا لتسقط ثمارها ، وطواحين الهواء التى تنقل الماء من الآبار إلى الغدران ؛ كل هذا قد كون مشاعره الجياشة .

فإذا اضيف إلى هذا منظر الحقول المريضة ، التى تواجه بيتهم .

والقطار الذاهب إلى القاهرة تشيعه عاطفة مبهمة ، والعائد منها يحمل الصحف الحافلة والوجوه الحلوة . . الصاعدة إلى أسوان ، كل هذا يرسم صورة الجو الشاعرى الذى يملأ النفس بالاشراق . . .

هناك فوق سطح المنزل ، حيث تتضافر أعواد شجرتان كبيرتان من التوت والنبق وتتعانقا ، كان يجلس ليقرأ مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدى ومؤلفات العقاد وسلامة موسى وطه حسين وهيكل والمازنى ، وترد على إذنه للمرة الأولى كلمات التطور والثقافة والشجاعة الأدبية والفكر والفن .

وتحت أقدامه يجرى الغدير الصغير ، يمر تحت جدار الدار ، والنساء يملأن الجرار ، ويغسلن أقدامهن . .

فإذا جاء الأصيل يمم فى اتجاه بحر يوسف فمر بقناطر ديروط ، وقطع الابراهيمية ، ووقف على المقرن حيث ينفصل عنها اليوسفى وترع أخرى صغيرة ، هناك بين الماء والشجر والقنوات وبجوار مبنى الرى كان يستمع إلى خرير المياه ، وهى تملأ النفس ، بشعور غامض فيه رهبة وشوق ومجهول .

ومن بعيد تدور المراوح الهوائية فتسق الحدائق ، وتأز وهى تدور ، فإذا اتجه إلى الجنوب ، سمع تلك الأصوات المهيبة المثيرة ؛ إنها أصوات المسامير التى تدق فى أجساد المراكب الخشبية وهى تبنى وتصنع ، وقد التحمت أخشابها ودق الكتان بين أحشائها ، والقار الأسود وهو يدهن بها ؛ ولطالما وقف هناك ينظر إلى هذه المراكب قبل أن تغرق فى الماء . . .

هناك موسيقى الطبيعة الحلوة التى كانت توقفه الساعات الطويلة

فى الصباح الباكر ، والنشوة تملأ نفسه حيث الطبيعة نشوى تملأ العين والاذن والقلب

وفى المدرسة : « عم » عمر بشواربه الضخمة ووجه الباسم ، تتلقاه قصص العفاريت التى يقـــال أنها كانت تدير المدرسة بالليل فتدق الأجراس وتنادى على السعاة ، وتعطى الدروس ..

هناك حيث عرف الرجلين اللذين فتحا أمامه باب الاتجاه إلى الفـكر : على ابراهيم وعبد الحميد الغزالى . . .

وناظر المدرسة الضخم الذى كان ينام فى الفصل وهو يكتب على السبورة ، فتسقط قطعة الطباشير من يده ، «وعصا» حنا أفندى القاسية وسخريات الشيخ عبد العزيز اللاذعه وخفة ظل حسن العياط وأناقته .

وفى البيت : كانت الحياة بسيطة . ولـكنها معقدة شيئا ما ، هى إلى الفقر أقرب ، لم يكن يتطلع إلى الثراء من حوله بعين الحقد ، ولا يتطلع بنهم إلى ماهو منه محروم ، بل كان كل مالا يجده يستطيع أن يستغنى عنه وكل مايذهب لا ينقص من حياته شيئا ، كان فى أعماق نفسه خلال تلك الفترة شىء غامض مبهم . ماذا كانت صورة المستقبل فى خياله ، ما هى الأمال التى كانت تراود روحه والأشواق التى تضطرم فى خياله .

كانت روحه تملأها أحلام غامضة من مسرات الفـكر والعاطفة . .

كان الغـروب يملأ نفسه انقباضا عجيبا ، كانت الشمس تغيب شيئا فشيئا وتدع مع الظل إحساسا بالإنطواء . . وقصص المنفلوطى عن البؤساء تزيد النفس حزنا وضيقا .

وفى المساء : كان شريط القطار يكون أبهى منظراً ، بالليل عندما يزحف كالثعبان يغمره الضياء بين المبانى والأشجار ، يظهر ويختفى فيترك فى النفس

رهبة وتطلعا . ووابور الطحين يواصل دقاته فى ظل الصمت والليل ، كأنها دقات قلب محروم قد أضنته اللهفة على الحبيب الغائب . .

فى حديقـــة المركز تعزف أصيل الجمعة الفرقة الموسيقية فيسعى إلى هناك ليستمع . . وتذهب نفسه مع الموسيقى مذهبا من الخيال . .

وعلى سور ترعة « السواحلية » يجلس مع صديقه صالح ، ماء الترعة يتدفق فى عذوبة . الشجر الجميل ذى الزهر الأحمر يمتد أمامه على طول الترعة ، الحديث الجميل يجرى حول الوجوه الجميلة التى تسمى بين آن وآن . فتبسم فى خفر ، أو تغضى فى حياء . ولـكنه رغم هذا كله ، كان حفيا بالوحدة ، كلف بها ،منطو على نفسه ، يقرأ كتابه فى نهم ، ويجلس هناك الساعات لا يمل ، بين شجرتى التوت والنبق المتعانقتين ، يطالع ويسبح بخياله فى المستقبل الغامض .

كان أبوه يحول بينه وبين الاختلاط فى حياة صارمة ،فلم يعرف العوم ولم يركب الحمار ولم يتسلق الأعمدة ، لذا نشأ خجولا منطويا ، فلما آن له أن يتخلص من قيوده تـكلف كثيرا من المشقة .

وأنه ليذكر كيف كان يستيقظ فى غبش الصباح يستمع إلى الطيور وهى تغرد من وراء نافذته الشرقية فوق أفنان الشجر . ترسل تسابيحها الباكرة ، وتتطلع إلى الشمس وهى توشك أن تشرق . لتبدأ رحلتهـا فى الحقول تغدو خماصا وتعود بطانا .

ويرنو إلى الفلاحات وهن يرفعن أطراف أثوابهن وينحنين ويملأن جرارهن من ماء الوابور العذب المتدفق . . وأحيانا كان يعبر الابراهمية

شمالا إلى الحالج ، يتطلع إلى قصور اليونانيين المنثورة على شاطىء اليوسفى، هؤلاء الذين جاءوا إلى ديروط يحمل أحدهم ندلا فى مقهى ، ثم لا يلبث أن يثرى وينشىء محلجا ينحنى له الفلاحـــون والمزارعون وهم يبيعون عصارة جهد العام كله : قطنهم ، فلا يكسبون إلا القروش بينما يكسب هؤلاء الخواجات الألوف .

ومن الافاق البعيدة ، هناك ؛ يتطلع إلى المدينة ، ويرنو إليها فى حنان وعاطفة ، لا توقف بصره إلا مأذنة الجامع الـكبير ، هـذه المأذنة الضاربة فى أعماق الفضاء فى كبرياء وجلال ،فإذا انبعث منها أذان المغرب أخذ يتمتم، كلمات قصيرة ، لعلها دعوة ترسم حلم الغد ، فقد كان يشعر أن السماء تفتح أبوابها عند الآذان ، ثم لا يلبث بُعد أن يطويه حزن غامض ممض لشىء مجهول لا يعرفه ، هو شعور ينتابه حينا ويعاوده فى غلس الغروب ومطالع الليل، ويقسو عليه ليلة العيد بالذات .

وفى صباحيات العيد كانت نفسه تهتز لنشيدها الموسيقى الحلو الذى ترده الجموع : الله أكبر كبيرا ، نصر عبده وهزم الاحزاب وحده .

وأينما وجه بصره فى بلدته الساحرة ، الغنية بمناظر الطبيعة الرائعة خفق قلبه ، كان الزهر والعطر الذى ينبعث من الحدائق يملأ نفسه . قناطر ديروط ، المراكب ذات الصوارى العالية البيضاء وقد نشرت أجنحتها وأفردت قلاعها .

- ٣ -

قضى صاحبي عاما طويلا فى القرية ، يحـــاول أن يهرب منها فى المساء ، فيمضى فى ذلك الطريق الممتد ، وقد اصطحب صديقه المقرىء الوسيم ، الذى كان يجيد الغناء إجادته لقراءة القرآن ، وصديقه الأديب الحائك الفارع الطول الذى جاء من القاهرة ليعمل فى الريف . ضاق ثلاثتهم بالريف ، الحائك يريد أن يعود إلى حيث أهله وأقاربه . يريد المقرىء أن يتاح له أن يقرأ فى الاذاعة حديثة العهد ، أما صاحبنا فقد كان يريد أن يكتب فى الصحف ويزاحم بمنكبيه كبار الكتاب .

وسافر الحائك بعد قليل من الزمن وتبعه المقرىء . وبقى صاحبنا بعد ذلك سنين أخرى فى الريف ثم لحق بالركب الطامح إلى مجد القاهرة .

كان ثلاثتهم يقطعون الطريق الزراعى بعد الغروب يتحدثون عن كل شىء ، حديث الحرمان والشوق والحب . ، يتحدثون عن ضيق الواقع ، وأمل الغد ، يحسون كأنما الحياة فى القرية تقف أمام رغباتهم وتحول دون آمالهم .

ولما عرف الحب أحس لأول مرة أن ذلك الضيق الذى يغمر نفسه

يلم بها بين حين وحين ، قـــد بدأ يتحول إلى حنان وفرح . ترى هل تبددت تلك الظلمات والغيوم التى ملأت نفسه بالانقباض طويلا .

كان صاحبنا لا يفتأ يفكر — وهو فى أعماق الريف — فى رحلة إلى أوربا ليتم دراسته ، لقد كانت أحاديث الذين عادوا من أوربا إذ ذاك تثير فى نفسه العاطفة وتوقظ الأمل . .

* * *

أما اليوم فان كل شىء قد تغير . .

كان قد ذهب يطرق ذلك الباب فى الطابق الأعلى يحمل تحية إلى قريبته التى عادت أخيراً من القاهرة لتقيم مع زوجها .

ودخل البيت المصرى الأول الذى بهره بجمال الاثاث ، الستائر ، الفونوغراف ، الارائك ، حجرة النوم ، مائدة التواليت .

وجلست تتحدث إليه بصوتها البغوم ولغتها القاهرية .

ومضت تسأله عن مدرسته وأفكاره ومشاعره ، ثم تحدثه عن القاهرة ، وعن منزلهم فى إحد ضواحيها .

كانت تلبس ثوبا رقيقا شفافا ، وتقفز فى رشاقة هنا وهناك . فتخرج تارة إلى الشرفة ، وتذهب مرة أخرى لترفع الاسطوانة ، أو تجلس ساعة إلى البيان .

وخرج صاحبنا مبهورا . . ليعود مرات ومرات ، يتحدث ويسمع

ويتمنى ، فى كل مرة تلقاه فى صورة مجددة ، إنها لم تكن ترى أنه أكثر من أخيها الصغير ، ولكنه هو ، كان يراها « فكرة » أكبر من المرأة نفسها . كان يرى فيها صورة القاهرة ، الحياة الجديدة ، الحضارة ، الصورة الحية التى رسمتها الصحف والمجلات والكتب فى نفسه .

فى كل مرة يزورها يعود إلى بيتهم الريفى ضيق الصدر ، تتفاعل فى أعماقه عواصف غريبة تحمله على المقارنة بين البيت الريفى القليل الاثاث ، الخالى من الزخارف والصور وأدوات الفن والموسيقى ، حيث طابع الريف فى الصورة والشكل والمضمون ، وبين هذه الصورة الأنيقة ، أسلوب الحديث ، ونبراته الحلوة ، الضحكات الفضية النقية ، الأثواب والستائر ، رائحة الحسن فى كل مكان ، ويد المرأة القاهرية فى كل لمسة .

وعندما التقى بالسيدة فى المرة الأولى اهتز وارتبك . لكنه فى المرات التالية كان يسأل ويتحدث . وهى تحوطه برعاية وعاطفة ، محاولة أن ترد عنه حياءه الريفى .

كان يحدثها عن الأدب والفن والصحافة . ويعلق على مسائل الساعة فى الصحف والمجلات بأسلوب تدهش له ، وترى فيه النضج والعمق والتألق ، قبل الأوان .

لقد دفعته إلى القاهرة ، وحرضته على أن يشق طريقه ، فأحب القاهرة ، وآمن بالأدب والفكر ، وحرص على أن يحقق هدفه مهما كلفه ذلك من جهد أو عناء .

ومرض يوما ، وجاءت تسأل عنه في ثوب أسود رائع . وأحضرت له اللفائف ، وأخذت تطويها حول صدره بعناية ، وهي تحدثه ضاحكة لتذهب عنه انطواءه وضيقه .

وشاءت ظروفه أن يغادر البلدة ؛ غادرها وهو يحمل شيئا لا يمكن أن يوصف بأنه الحب وإنما هو أمل وطموح إلى الحياة الناعمة الرقيقة ، إلى الوسط الجديد .

* * *

انطوت هذه الصفحة إلى حين ، ومرت عجلة الزمن سريعة لاتتوقف ، وسافر صاحبنا إلى القاهرة وحقق آماله إلى أبعد حد .

ومرت خمسة عشر عاما .

وذات ليلة كان يجلس بجوار فراش مريض وكانت « هي » تجلس إلى جواره . ومضت الذكريات تجري رخاء ، وتوغل في الماضي ، وعاد إلى الساعات المبكرة في حياة الشباب ، يوم كانت في نظره أجمل امرأة في الوجود كله .

أما اليوم فقد ملأ شعرها الشيب ، ولبست نظارة ولكنها لا تزال توحي معاني السمو والمجد . . صوتها ما زال محتفظا برنة القيثار وموسيقى الأمواج ، ورقة النسيم . . أما روحها الخافقة وطبيعتها المشرقة الوثابة ، فإن الزمن قد زادها قوة وحيوية .

كان ينظر إليها ثم يعود بالذكرى إلى الصورة الأولى :

إنه وحده الذى يعرف !

لقد كانت القصة قصته هو ، لقد طوى عاطفته وظل يصارعها طويلا.

وعندما يعود إلى بلدته فى المساء ، كان قلبه يخفق ، مازال بيتها مضيئا . يبعث الحنان !

ولطالما ذهب يمشى تحت نافذتها لعله يسمع ضحكة مضيئةأو نبرة حلوة.

وقضى أعواما يترقب أنباءها ، يسأل عنها ويتعرف أخبارها فى نهم وشوق ، يراها نقطة تحول فى حياته . من يدرى لولا أنه رآها وأحب جوها الموسيقى وامتلأت نفسه بالتطلع إلى صورتها فى بيتها . لولا ذلك لما جاء القاهرة ، ولما حدد طريقة ، ولبقى فى قريته يعيش كأترابه فى ذلك المحيط الريفى الهادىء .

كانت « رمزا » على معنى كبير ، كان يراها شيئا عظيما ، أعظم من المرأة ، لقد ظل سنين إذا جاء ذكرها أطرق وأحس بالفضل ، فضل « المعلمة الأولى . »

إنها هى التى دفعته من غير وعى إلى ذلك الطريق .

إنها هى التى خلقت فى فتى الريف حب القاهرة والمرأة المثقفة .

ولئن كانت قد أنكرته يوما فما زال هو لها وفيا ...

وهى اليوم تراه وقد تألق ، فتحس أنها هى التى ألقت الضياء الأول إلى حياته . .

- ٤ -

عاش فى الريف سنوات طويلة . لم يهجره على كثرة ما تمنى إلا فى حدود الثلاثين . تنقل فى خلال هذا العمر بين بلده ديروط وبين عديد من القرى والبلاد . كانت روحه خلالها معلقة بالقاهرة ، تلك التى كانت حلمه العتيد .

حياته فى الريف حالة فقيرة . لم يلبث أن ترك المدرسة إلى العمل فى قرية بعيدة عن بلده . هناك فى غرفة صغيرة ذات سلم مستقل كان يقضى بين العشش والأكواخ ليله كله عاكفا على مطالعات وكتابات ، تحيط به أصوات الفلاحين والفلاحات ، ذلك السمر الساذج الحلو الذى يسمرون به ويضحكون ، وهم يتناولون عشاءهم البسيط ، بعد يوم مجهد حافل بالعمل ، فإذا ما آوى إلى فراشه وأطفأ ذلك السراج وذهب فى النوم، لم يلبث أن يسمع قبيل الفجر نداءات توقظ هؤلاء العمال تدعوهم إلى الحقول .. بينا يكون البرد قد بعث فى جو الحجرة المقفلة صقيعا يدفعه إلى أن يدفن رأسه تحت الغطاء .

فى خلال هذه الأيام الخابية الضياء كان يتطلع إلى الغد المضىء، كان ضيقا بالواقع يحلم ويقتات الأمل الذى ظل يسيطر عليه طويلا وهو السفر إلى أوربا ليتم تعليمه .

فإذا ما داف من صومعته الصغيرة لقيته صفوه من اصدقاء « مصطبة القاضى » حيث يحلو الحديث عن المدنية ، من ديروط وقناطرها الحلوه ، وجالها . .

كان إذ ذاك فى السابعة عشرة ، ماأن ينتهى عمله فى الغروب ، حتى يذهب ليقطع ذلك الطريق الطويل ، يشق الحقول حتى يصل إلى قمة الطريق الزراعى : هنالك يقف متطلعا إلى السيارات تقطع الطريق متجهه إلى بلده ديروط . مشوق إلى هؤلاء الذين خلفهم هناك ، حيث يقضى أيامه فى هذه الوحدة الباكرة !

لطالما وقف على شاطيء الابرهيمية يتطلع إلى مائها ثم يعبر فى زورق إلى الشاطيء الاخر ، حيث رصيف المحطة ، يرى القطار القادم ، ويملأ نفسه بالحركة والحياة ثم يعود مرة اخرى إلى صومعته !

ولم يلبث أن إنتقل إلى بلدة ريفية أخرى . . حيث لقى جواً أكثر راحة لنفسه ، فقد تحسن عمله ، وتحسن بذلك مسكنه ، ولم يلبث أن شارك صديقه طه فى منزل أنيق . يطل على ميدان واسع ، يواجه قصر زكريا مهران الذى بناه على الطراز العربى . حيث يلتقى صفوة من كبار موظفى القرية عندما يعود البك إلى القرية ، ويجرى الحديث حول الأدب والشعر . طيبا طريفا . أو حين ييممان قصر الباشا القائم وسط الحقول حيث يلقيان ذلك الرجل الذى كان شخصية كبيرة مهيبة مخوفة بل ومفزعة ..

كان « طه » أول من استقبله على القطار عند ما دلف إلى هذه البلدة ، فلما ذهبا يشقان الطريق الزراعى رأى ذلك القصر الرائع المهيب ، كان صديقنا القبانى يطلق عليه لقب (بلدز) حيث يحكم واحداً من كبار الاقطاعيين المنتشرين فى ريف مصر وصعيدها ، ممن يضمون فى يدهم كل مقدرات البلاد وسلطانها . وإليهم تنقل أخبار الناس وأحداثهم ، ويتصرف رجالهم فى الأمور تصرف المالكين فى جرأة على الظلم لا حد لها . . .

كان الباشا يقبض على ناصية الأمور فلا يجرى أمر دون إذنه ، بل أن المحققين والضباط وكبار موظفى الدولة ، لا يدخلون القرية لأمر إلا بعد أن يقصدوه ويحملوا توجيهاته . ، لقد وقف ثلاثة فى مكان يتكلمون فقال أحدهم : إن هامساً سيهمس الليلة فى أذن الباشا انهم كانوا ثلاثه فى ذلك المكان .

وفى المساء عند ما كانوا جلوسا عند مدخل البلدة ، مر عمال الزراعة وهم عائدون من حقول القطن يحدون بذلك الرجز العجيب :

والى يعاند الباشا شقى وعمره قصير

وكان للباشا ضحايا بين حين وحين ، عند ما تحدث أحدهم نفسه أن يقف ضد رغائبه ، أو يعارض أمره ، . كان موظفو البلدة ومركزها ومديريتها يسمعون لأمر الباشا ويطيعون ، ذلك أنه كان يغدق عليهم من هداياه .. قصب خد الجميل ، والفريك ، و« زبل » الحمام . .

هذا الحمام الذى كان يتضاعف فى أبراجه الضخمة المطلة على شون البنوك يسرح إليها ويمرح فى أى وقت من الأوقات دون أن يجرؤ أحد على رده . . وعند ما جاء مدير البنك الجديد ، ورأى هذه الهجمات الضخمة التى يقوم بها الحمام فى أفواج ضخمة عند الغروب . . هتف يدعو الخفير ، وقال له : أين سلاحك ؟

قال معى . . ، إذن اضرب بالنار فى هذه الأفواج عند ما تهبط على اهراء الغلال . .

وقال الخفير هام فى بلاهة « إن من يجرؤ على أن يضرب حمامة واحدة بالرصاص سينال هو الآخر رصاصة واحدة » .

وقال المدير : ممن ؟

قال : إنه حمام الباشا . .

هذا الحمام كان يذبحه الباشا ويطعمه ضيوفه ، ومن بينهم موظفى البنك يقدمه لهم وهو يتضاحك ساخراً : هذا الحمام الذى يعيش فى ضيافتكم ، كلوه

وفى رمضان ، فى كل مغرب تمد الموائد فى دار الباشا يحضرها كبار موظفو المديرية طائفة وراء طائفة ، فلا يمكن بعد أن يقضى أمر بغير أمره . . .

أما صاحبنا فكان كل غروب يخلف البلدة وراءه وينطلق إلى الشاطىء حيث

يجلس على قنطرة بجوار حديقة كبيرة هناك . يطلق عليها (مصطبة العزاء) .

كان طه يتحدث طويلا ، يتحدث عن الحب .. ذلك العملاق الضخم الذى يفزع ليلنا ونهارنا فى هذه الفترة ..

ونفس الجلسات هناك فى ديروط . فى نفس الأمسيات على نفس الشاطىء : شاطىء الابراهيمية الجميل ، الذى عرفه منذ الطفولة ، فقد كان يعبره كل صباح إلى المدرسة ، عند ما كان ينفصل منه فى ديروط « بحر يوسف » ، .. هناك فى ديروط كان يجلس مع صالح فى لنش صغير تحت الحالج إلى الغروب !

كان الغروب مثيراً يفعل فى النفس فعلا عجيباً ، كانت كل مشاعر الحرمان والألم والأشواق والوحشة والتطلع إلى المستقبل تفعل فعلها فى هذا السن الباكر .. سن السابعة عشرة ..

وعند ما يشقان طريق « الديروطية » وعلى يمينهما الإبراهيمية ، وعلى يسارهما نهير صغير آخر ، كانا يقرآن « المنفلوطى » ويحفظان كلمات « ماجدولين » ويرتلانها ، كان معهم حلمى الصباحى وحمدى قيص ..

ولقد يذكر أن حلمى كان طامحاً فى ذلك الوقت إلى أن يجد لقباً يضمه فى مؤخرة اسمه ، وبينما كانوا يطالعون إحدى القصص صادفهم تعبير مثير :

(ودخل السباعي كاسراً سيفه) .

هنالك قال حلمي : خلاص ! أنا حلمي السباعي منذ اليوم !

وأحيانا كان يقضي المساء عاكفاً على كتاب « العبرات » غارقا في قصصه التي تصور البؤس والحزن والحرمان وتثير الدموع في العيون .. لست أدري لماذا أحب المنفلوطي وعكف عليه ، على هذا النحو ... ربما كان مصدر ذلك الاحساس بالحب للمنفلوطي هو البيئة التي ولد فيها . تلك البيئة الفقيرة حيث كان أباه السمح يذهب بعيداً ثم يعود حاملا الهدايا والفاكهة والخير الوفير ووجهه يتلألأ بشراً ، فقد أرضى مطامح نفوس أبنائه بعد الجهد الكبير الذي بذله والمشقة التي لقيها في رحلته الطويلة ...

كان يعطيهم شيئا كثيرا يملأون حجورهم فيجري كل منهم ليحفظه في مكان لا تصل إليه أيدي الآخرين .

وما زال يذكر كم كان حازما معهم ، يحول بينهم وبين الخروج من البيت بعد أن يعودوا من المدرسة . لقد أمطرت السماء يوما ، مطراً غزيراً فأحس بالمشقة في عودة ابنه من مدرسته البعيدة ، هناك على شاطىء بحر يوسف ، فخرج في حذاء خفيف ليعود به . وأخذ ينقل رجلاه في صعوبة بين الوحل ، فما أن عاد إلى البيت حتى كانت قدماه قد جرحتا وسالت منهما الدماء بغزارة ...

ولعل خوفه على أبنائه هو الذي دفعه أن يحول بينهم وبين أن ينطلقوا كأترابهم يذهبون هنا أو هناك ، فقد كان يخشى عليهم من كل شيء ..

وكان أقسى ما يكون معهم ، أيام الفيضان ، كانت مياهه تغمر الحقول الواسعة الممتدة أمام منزلهم حتى تصل إلى مسافة قريبة من البيت وكان الأولاد فى شارعهم ينزلون إليها ويعومون . . أما هم ، فقد كانوا محرومين إلا من مجرد النظر من بعيد إلى هذه المياه ، وسماع أصوات العابثين بها ، أما بالليل فقد كانت الضفادع تسمعهم بموسيقاها حتى مطلع الفجر .

ربما كان ذلك مصدرما فى نفسه من خوف وانطواء ونظرة جادة قد تكون صارمة للأمور ، وربما حال ذلك بينه وبين استقبال الحياة استقبالا مرحا ساخراً .

لقد أحس منذ اليوم الأول بعبء المسئولية ، شعر بأنه يجب أن يخفف أعباء أبيه ، وأن يحمل أعباء نفسه سريعاً ، لعل هذا هو ما دفعه إلى أن يقطع دراسته بعد أن أصيب أبيه فى تجارته ، ومضى يشق طريقه فى عمل يسير متواضع ، متعمداً أن يواصل دراسته لدفع حياته إلى الأمام بقوة . .

و « هو » منذ وعى يحب الورقة المكتوبة ، يقرأ عناوين الصحف وهى فى أيدى المارين أمام دارهم ، وكذلك ابنته اليوم تجيئه لتقول أنها رأت صورة كذا أو اسم كذا ، فى الصحيفة التى يحملها فلان من الناس . .

أما أمه فكانت تعطيه قروشاً كل أسبوع ليشترى مجلة « كل شىء » كانت بالنسبة له فرحة عمر ، كان يحلم بها وينتظرها ويترقبها يوم الاثنين ، وكان البلاغ أيضا . . حبيباً إلى نفسه مساء الخميس . . هناك فى « المصلى » الذى أقامه والده أمام منزلهم ، . . كان يهجع بعد العشاء . . يتطلع

إلى النجوم ويستمع إلى صوت قطار الثامنة وهو يشق الفضاء قادما من القاهرة يحمل «البلاغ» وفيه مقال «الحديث ذى شجون» الذى يكتبه الدكتور زكى مبارك .. هذا الرجل الذى أحبه .

كان «المصلى» شيئا عميق الأثر فى نفسه ، صوت أبيه الأغن وهو يؤذن للعصر والمغرب والعشاء .. وفيما بين ذلك كان يجلس ، يقرأ فى كتاب أو يستمع إلى شيخ من العلماء ..

كان يحب حلق العلم فيقصد إليها فى المسجد الكبير ، وفى يوم الجمعة كان حريصا على صلاة الجمعة وسماع الخطبة ..

الشيخان أبا بكر وطه لاينساهما ، لطالما ذهب إلى منزل الشيخ «طه» ، كان قريبا من بيتهم ، يتطلع إلى الكتب الصفراء الضخمة التى تملأ بيته المتواضع .

لعل هذا الجو الدينى الذى وجده فى بيئته ، وما ارتبط به من صور تتصل بالمسجد وحلق الذكر .. كان بعيد الأثر فى حياته .

إنه يذكر يوم أن غاب والده عنهم ، كانت أمه مريضه ، فألح فى السؤال عنه ، فقالوا إنه معتكف فى المسجد مع الشيخ عمران ، فلما قصد إليه وجده فى حلقة ذكر . ولطالما ذهب مع طائفة من أترابه .. ينادون الناس فى السحر لصلاة الفجر ..

فإذا قصدوا المسجد صعدوا المنارة يرددون بصوت حنون نداءات

ما قبل الصلاة ، ثم ينزلون فيحركون الطلمبة الضخمة لترسل الماء من جوف الأرض إلى صنابير المياه .

وما باله يذكر أستاذه الشيخ عبد العزيز مخلوف ، يوم كان يدخل حصة اللغة العربية في الصباح الباكر في الشتاء فإذا جاء تلميذ متأخر قال له بلهجة السخرية :

(ناموسية كحلى) والشيخ مخلوف من بلدة بنى عدى فلما جاء أحد زملائنا (محمود) ذات يوم متأخرا قال له كلمته الساخرة !

— ناموسية كحلى يا سى محمود ؟ انت من أى . . . . (وصف عنيف للبلدة على وزن « قرية » وقد استبدل القاف بحرف اخر) فانبرى محمود له قائلا : من بنى عدى يا أفندى !

وعندما وقف صاحبنا في المدرسة يلقى محاضرة عن (الأدب العربي الحديث) ويتحدث عن هيكل والمنفلوطي والمازني والعقاد .. فلما انتهى وقف أستاذه (عبد الحميد الغزالي) وقال : إن هذه المحاضرة فوق مستوى الطلاب في المدرسة الابتدائية !

تنبه أستاذ آخر هو (على إبراهيم) لأمره ، فأخذ يدفع إليه الكتب ويطالبه بأن يقرأها ..

ولا زال يذكر كيف جاء هذا « الأستاذ » إلى منزله مرة ليقدم له كتاب (الثورة الفرنسية) لحسن جلال .

* * *

وفى ديروط يجد أكثر من خيط ما يزال مرتبطاً بنفسه ! هناك سمع منذ الصبا الباكر قصة « ثورة ١٩١٩ » ، هؤلاء جيراننا « ال فولى » لهم فى الثورة تاريخ ماجد ، فقد استشهد آباتهم فى الثورة وعلقوا على أعواد المشانق لأنهم شاركو فى قتل (بوب) المفتش الانجليزى وقطعوه اربا وباعوه على العربات بالرطل ! . .

كيف كانت مدرستهم مقر محاكمة هؤلاء الأبطال ، حيث قدمت ديروط عدداً ضخماً من الشهداء والضحايا والسجناء الذين أمضوا زهرة حياتهم ورار الأسوار . .

ولعله قد اندست فى أعماقه هذه الروح الوطنية التى قاومت الانجليز ، فأحس منذ الصبا الباكر بعاطفة وطنية ضخمة . . زادها قوة وحماسة ماحدثه به إباه من أن جده اشترك مع عرابى فى معركة التل الكبير وقاتل ما وسعه القتال فلما انهزم العرابيون طفق يجرى حتى دخل مدينة طنطا . .

وفى ديروط يبدو جمال الصورة . . التى تربطه بالحياة ، هذه القناطر التى بناها المهندس والد حافظ ابراهيم ، . . وعلى ضفافها ولد هذا الشاعر ، فى بلدم فى احدى الذهبيات . كان هذا الشعور يملأ نفسه بعاطفة أخرى . . هى عاطفة الأدب والفكر . .

والمنفلوطى أيضا من بلده فهو صعيدى ، وهو فى هذا الوقت صاحب صيت قوى ، وأثر كبير فى الجيل الذى كان يكتب ذلك الوقت ، وأنه ليذكر أن « يحى حق » كتب يومها قصة عنوانها « أبو فوده » فى السياسة

الأسبوعية وجاء من يدعوه أن يقرأها لأن جبل أبو فوده هو جبلهم القريب من شاطىء النيل .

ولم يلبث الأدب أن تمكن فى نفسه فأخذ يطالع «الهلال» . كان الفكر جافا قبل أن يعرف الحب ؛ الحب الذى كشف له من نفسه عاطفة وحياة وإشراقا ، هنالك التقى الحب والفكر فى كلمات رقيقة كان يكتبها لنفسه .

وموضوعا فى احد كتب الأخلاق أثار عاطفته .. كان ذلك الموضوع عن « المثل الأعلى » .

... هنالك بدأ يتجه نحو المثاليات والقيم ، ثم لم يلبث أن بلغ إيمانه بالقيم حداً كبيراً ، لم تستطع حياة القاهرة بأساليبها ومداوراتها ومناوراتها أن تحطم هذا المعنى فى نفسه أو تجعله انهزاميا يعرف النفاق وتزويق الألفاظ والتنقل من معسكر إلى معسكر . وحمل القماقم ! .. ظل أسلوبه فى الحياة هو أسلوب الصعيدى الجاد الصارم الذى لا يقبل أن يدفع ذرة من شرفه لقاء القروش القليلة ...

بدأ اتجاهه فى النقد عنيفا ، كان قاسيا وفق أسلوب الهجاء الذى كان يقرأه أيامها فى الصحف الحزبية ، فيه شىء من عنف العقاد وسخرية طه حسين وصرامة الرافعى .

ولم يلبث أن تبين أن ذلك لم يكن من طبيعته ، وإنما كان أمراً دخيلا ..

واكتشف بعد أنه من ذلك النوع الذى يستطيع أن ينفذ إلى ما يريد دون أن يجرح أو يسيل الدماء ..

* * *

ومن «ديروط» تعيش فى أعماقه لوحات رائعة ، لعل أجملها صورة قناطر ديروط ، هذه التى وعت أحلامه وأشواقه ، وعلى طريقها الممتد بين الابراهيمية وبحر يوسف تتجلى تلك اللمحات التى تعيش فى أعماقه ، قوامها إحساس عاصف بالحرمان وشوق إلى شىء مجهول كانت القاهرة والحب والأدب أبرز صوره ومعالمه ..

فلما ذهب إلى القرية وعاش فيها كان يتحرق شوقاً إلى ديروط المدينة ، ويعيش فى أحلامها . لعل صورة أبيه وأمه وبيتهم لم تكن هى أبرز هذه الصور ، ليس لماذا ؟ ربما لأن أباه كان من فرط حب أولاده يحجزه عن الدنيا ، ويحاول قدر ما يستطيع أن يحصره فى محيط لا يغادره ، فكانت حياة المدينة تشوقه أكثر مما هى فى الواقع ، كانت الصلاة فى المسجد إذنا له بالخروج يستطيع فى ظلها أن ينطلق . وكان السوق أحيانا حجة أخرى لشراء بعض مطالب المنزل أو الفاكهة !

ولذلك كان القطار حبيبا إلى نفسه لأنه كان يراه من شرفة دارهم مرات فى اليوم ، يراه وهو منطلق إلى القاهرة فيتمنى ذلك اليوم الذى يستقله ولطالما تطلع إليه عائداً من القاهرة يحمل الوجوه الجميلة فى أيام الشتاء ذاهبة إلى الأقصر ، أو حاملا الصحف التى كان ينتظرها ويجد فيها خيوط

الفكر والأدب التى كانت إذ ذاك قد بدأت تأخذ طريقها إلى القلب .

كل ما كان يصل إلى بلدهم من القاهرة محببا ، المرأة القاهرية ذات العطر والجمال والكلمة الملحونة ، الشباب الذى يعود ليقضى أجازته من أبناء بلدهم حيث يسمع اللهجة القاهرية ، وأحاديث حلوة فى السياسة والأدب والحياة .

بل لقد كان ينتظر عودة أبيه بفارغ الصبر من القاهرة عند ما يسافر إليها لأنه كان يحمل لهم من هدايا القاهرة أشياء كثيرة ، من اهمها الكتب بل أن الأوراق التى تلف فيها الأشياء كانت لها رائحتها الحلوة ومنظرها الجميل .

كذلك كان يتطلع إلى القاهرة فى شوق ونهم وهو يجرب أولى خطواته فى عالم الكتابة . ولقد تلقى وعدين أكدا له ضرورة السفر ، وعد من صاحب إحدى الصحف ، وهو من بلدهم ، قال حين رأى بعض كتاباته أنه يقبله للعمل معه بمرتب ثمانية جنيهات وكان الرقم مغريا حقا فى ذلك الحين .

ووعد آخر من سيدة كريمة ، كانت تزور ابنتها المتزوجة ، رأته شغوفا بأن يجلس إليها ليسمع ويرى ويعيش فى روح القاهرة الحلوة ونكهتها فى الحديث والأثاث والملبس .. ، قالت له أن ابنتها فلانة ستكون له .

من أجل ذلك عاش يحلم بأن يذهب إلى القاهرة فيجمع فى كلتا يديه العمل الذى أحبه ، والفتاة التى داعبت خياله فى صورة أختها .

وتبخرت هذه الأحلام ذات ليلة عند ما عزم على السفر فعلا وأعد عدته له ، فإذا به يفاجىء بهم يقبضون عليه وهو يهم بالقفز إلى القطار فيعود مرة أخرى إلى حياة الريف حيث أمضى أكثر من ثلاثة عشر عاما أخرى . . قبل أن يتاح له أن يحقق أمله .

أما الفتاة فقد ظلت تعيش فى أعماقه حتى أتيح لى أن يزور القاهرة ، ويقصد تلك الضاحية ، فما أن رآها حتى تبددت أحـــلامه فى لحظات ، لم تـكن على النحو الذى رسمه لها أعماقه ، امل تلك الفتاة الريفية التى أحبته وربطت نفسها به ، وكان يسمع نبرات صوتها الحلو من ناقدتها كانت قد ملأت جوانب قلبه ، فلم يعد هناك مكان لغيرها . .

كانت فتاة القرية مثله الأعلى فى المرأة ، ما تزال ذكراها بعد مرور نيف وثلاثين عاما تفعل فى نفسه فعل السحر ؛ أنها حبه البكر :

الحب الهامس الذى كان يتحدث فى لهفة من وراء شيش النوافذ ، رفيعا عالى القدر ، نقيا يرفض الهدايا ولا يطمع إلا فى رضاه !

كانت من أسرة كبيرة يوم كان فى وضع لا يستطيع معه أن يطلب يدها ، وعندما قد إرتفع وضعه حتى أصبح شيئا مقبولا عند أهلها كان القدر قد زوجها من غنى فى قرية تجرى امامها الإبراهيمية . .

كان يشتاق إلى ديروط فيعود إليها ليلا بعد أن ينتهى العمل الطويل ، حتى لقد ركب مرة إلى جوار عربجى عربة فاز ، ومضى محمود رحمه الله

يردد أغانيه الحلوة وهو يضرب حماره بالكرباج ، والليل يغمر الوجود بظلامه والعربة منطلقة بهما والابراهيمية على اليمين ، فما أن وقع نظره على أنوار «ديروط» من بعيد حتى خفق قلبه وهزته هزة : هذه قناطر ديروط الجميلة وذكرياتها .. هذه أشجار التوت ، هذه حقول القمح ، هذه الطاحونة المجاورة لدارهم والتى كان يلعب حولها وتظل طوال اليوم تهز بيتهم وهم جلوس تحت شجرة النبق الحلوة ، وهذا منزل : القاهرية ذات الصوت الحلو . المرأة التى علمته كيف يحب القاهرة ويتطلع إلى المجد !

وفى ديروط كان ينطلق إلى الحقول فى الأصائل ، حتى يصل إلى تلك الدار التى تقع فى الجنوب الشرقى .. كانوا يتجمعون هناك حول سورها فى الغروب يسمعون الشيخ محمد رفعت وهو يتلو آيات القرآن من المذياع الوحيد الذى كان فى بلدهم .

* * *

أيام فقيرة ولكنها كانت باسمة ، كان الأمل يملأ النفس فى غد مشرق ، وعلى مصطبة القاضى كان يجلس مع فوزى ولطفى ومختار . يضحكون كثيرا ، أما فوزى فكان ساخراً هازلا بينما كان مختار رزينا هادئا ، أما لطفى فمع أنه كان أكبر سنا يتوكأ على عصاه ، فقد كان مرحا عابثا يحب القصص ويجمع منها عدداً كبيرا ، لقد قرأ أمامنا « روكامبول » ، وهى أو عائشة وغيرها من روايات الأهرام ! .

ومع ذلك فقد كان لا يحب الروايات والقصص ، ولكنه يحب الصحف من أجل الفكر والأدب وحياة العظماء ، كان قلبه لا يخفق لشىء كما يخفق لكتاب جديد .

جاءوه مرة ، وطلبوا منه أن يرافق فرقة من العاملين فى تحصين جسور النيل ، فلما ذهب معهم أقاموا له خيمة من البوص فرح بها حيث عكف على كتاب يقرأه ، وفى المساء اكتشف أن العمال الذين كانوا يجمعون الحطب قد أخرجوا منه قطنا باعوه . فلم يعر ذلك التفاتا ، فإذا فى اليوم التالى يقدمون له مبلغا من المال ، هم أن يرفضه لولا أن واحداً منهم كان يعرف هوايته .. قال : لماذا لا تقبله ، إننا نشترى لك به بعضا من هذه التى تحملها إبطك ! .

هنالك انفرجت أساريره وقصدوا إلى مكتب البريد فأرسلوه فى حافظة إلى القاهرة لمكتبة الوفد حيث اشترى به بعض كتب كان مشتاقا إلى قراءتها : يذكر منها « أوقات الفراغ » لهيكل و « فى الحياة والأدب » لسلامة موسى .

وعندما يذكر الليالى الحافلة فى الريف يذكر ليال ثلاث :

كان صاحبه يوسف الجلالى قد دعاه إلى إنتظار صديقه « ابراهيم بالى » الطالب الجامعى الذى كان سيمر ببلدهم فى طريقه إلى أسيوط فلما جاء القطار ونادياه ، أقسم عليهما أن يركبن ، قالا إننا لانحمل تذاكر : قال أن لديهم نقص فى عددهم فركبا إلى أسيوط حيث وصلاها حوالى الساعة العاشرة ، ومضوا يتجولون فيها إلى الصباح، وهم يسمرون ويضحكون ، يالله ! إنها أول ليلة يسهرها حتى يرى ضوء الفجر ، فلما وصلوا آخر المطاف منزل يوسف قدمت لهم السيدة الكريمة طعام « سد الحنك » ثم أسرعا إلى أول قطار عائدين .

وليلة أخرى .. كان يوسف أيضا قد رأى جاره فى المنزل يشرب الخمر، فدعاه لأن يعود به ، فلما خرجوا معه ، كانت عربة تنتظرهم وكان سائقها قد أصاب خمرا ويوسف معهما . وانطلق السائق بهم نحو إحدى المدن وهو غاية فى ذهاب العقل ، ومع صديق يوسف مبلغ كبير من المال فى جيبه واستولى عليهما الخوف ، كان السائق بانحرافة بسيطة يستطيع أن يقذف بهم فى الابراهيمية .

وليلة ثالثة : المساء فى أيام الفيضان ، عادت المراكب إلى الشاطىء لم تبق من وسيلة للانتقال غير الجمال ، ما أقسى تلك الليلة ، ركب كل منهم خلف سائق الجمل، والجمل يتقلع ويرفع رجله ، فإذا خلعها من الطين خفض الاخرى ورفعها ..

فلما وصلوا إلى القرية كان أثر هذا العبور قاسيا فى نفسه ،لم يستمتع بجلسته فى تلك الليلة ، لأنه كان ينتظر أن يركب الجمل فى العود ويقارف هذه التجربة المريرة مرة أخرى ا الجمل يرفع رجله ويتقلع ، ثم يخفضها ويرفع الأخرى .. وهو فوقه مضطرب الرجل خوفا من أن يسقط من على ظهره فى هذا اليم . ماأقسى هؤلاء الذين يغلق أهلهم البيوت عليهم فى أيام الطفولة، إنهم يعيشون فترة طويلة من حياتهم كالأسماك خارج المحيطات .

وفى الريف عرف الحنان : الطفولة المتواضعة ، أخوته الصغار حيث كانوا ينسرقون ليدخنوا اعقاب سجائر أبيهم، اخواته الزهرات المونقات، منزلهم الذى ما زال حتى الآن يقف على حافة الحقل الزراعى الواسع وفى نهايته طريق القطار .

عرف فى الريف البراءة والطهر والحب ، رأى الروحية فى أجلى مجاليها ،

إن مأذنة المسجد العالية التى يراها من القطار سامقة فى الفضاء ، أعلى مأذنة فى الصعيد كله قبل أن يصل إلى ديروط ، تثير فى نفسه ذكريات ذلك النداء الرائع الذى يهز النفس عند ما ينطلق فى الفجر ! .

وفى أمسيات رمضان المليئة بالأضواء والعطور والبخور وآيات القرآن ، وتلك الأهازيج الحلوة التى يرددها المؤمنون بعد صلوات التراويح .

وعرف فى الريف البساطة والأحلام ، عند ما كان يسمر مع أترابه بجوار وابور المياه يضحكون ويأكلون الذرة الشامى وهى ساخنة ملتهبة ، أو هناك فى ليالى الموالد : رقصاتها وأغنياتها .. وعند ما كانوا يذهبون إلى « مواجة » حيث القادمين من القاهرة يقدمون الأطعمة ويذكرون الله ويلقون الأناشيد والأدعيات ..

عرف فى الريف « طه » أصدق أحباب الصبا والشباب . عاشا سنوات . واشتركا فى منزل واحد ، وامتزجا معا ، امتزاجا كان مبعثه تشابه مذهبهما فى الحياة وفهمهما للأمور وذكريات قديمة من أيام العمل فى القرية الأولى .

كان طه يقوم بأعمال البيت كلها ، يعد الطعام ويغسل الأطباق ، وينظف المنزل فلا عليه هو إلا أن يجد طعامه عند ما يعود من عمله .

كانا يعكفان فى بعض الأمسيات يتحدثان عن الحب . كان كل منهما شغوف بصاحبته ، يود لو يتاح له أن يقترن بها . ولكن الظروف المادية والحوائل المختلفة حالت دون تحقيق حلمهما وأملهما .

ولطالما بات يستمع إلى حزمة الرسائل التي يقرأها صاحبه ، فيها تلك العاطفة الملتهبة الحنون ، تشرق من رسائل فتاة لم تبلغ قدراً كبيرا من التعليم ، ولكنها تعبر عن صدق، كان يراها في صورة نفس رائعة حلوة ، ذات عاطفة قوية عميقة؛ لقد أحب الإسكندرية في صورة حب طه قبل أن يراها.

كان منزلها في صدر الميدان العام ، تجاه ذلك القصر العربي الجميل الذي يعيد منظره إلى النفس صور قصور غرناطة وقرطبة والحمراء .

وبينما كانت الأيام تمضي حدث حدث غريب ..

فقد كان صديقه طه يطرق الباب بعنف . وبدا له أن يضع كرسيا تحت النافذة ليصعد عليه ويلقي له المفتاح .

وما كاد يستند إلى الحاجز الخشبي المقام على الجزء الأسفل من النافذة حتى سقط الحاجز وهوى من وراءه الى الارض بعد أن فقد توازنه .

وأراد الله أن يخفف عنه محنة السقوط فحال الإطار الموضوع فوق القهوة التي تحت نافذته ، ليحجز عنها الشمس ، دون سقوطه وغير اتجاهه فوصل إلى الأرض دون أن يصاب بأذى كبير ، وإن كان قد أغمى عليه وأصيب بصداع استمر معه أياما .

ومضى يملأ أيامه الفارغة بالقاهرة .. كان زكي مبارك قد نصحه بقوله « واصبر حتى تصبح قوة أدبية كبيرة ، هنالك تجد الأدباء ينصفونك وهم راغمون » .

وكان عمله يضطره أحيانا أن يغادر فراشه الدافىء فى أيام الشتاء ليواجه البرد القارس . فكان يتطلع إلى النوافذ المغلقة ومن وراءها الأضواء ما تزال تلمع . والناس فى أحلامهم ، كان يحسد الناس ويتمنى أن يسعده الزمن بلحظات هناء لا تضطره إلى هذا الكفاح الشاق .

ومضت أيامه مريرة مجهدة فى سبيل تحصيل العيش ، لم يكن يهونها عليه إلا صديقه طه ، ذلك الرفيق الحبيب الذى كان يكبره سنوات قليلة ، وهو مثله يكافح العيش فى هذه السن الباكرة ويتطلع طامحا إلى آمال بعيدة . . كان أشق ما يزعجه ساعات القيلولة فى الصيف ، تلك التى يقضيها الناس فى بيوتهم هاجعين ، بينما كان يقضيها هو فى العمل المجهد وربما فى الشمس ، يراقب ويكتب ولا يستريح ! .

وفى ميدان العمل وجد من الناس أطماعا وأهواء ، حاول أن يتجنبها دون أن يصطدم بهم . كان فى طبعه من البساطة والصراحة والوضوح ، ما أعجزه عن مجاراة تلون الناس ونفاقهم ، فضاق بهم أشد الضيق ، وأنكر هذه الأساليب ، ولكنه اضطر إلى حد ما أن يأخذ الأمور باللين مرة وبالشدة مرة أخرى .

أشقته طبيعته البسيطة الواضحة ، ولم تنفع المحاولات المختلفة فى إغرائه لتغيير طبيعته ليمضى مع الناس فى أساليبهم .

كان من اجل ذلك فى جهاد وكفاح طويل دائم . . أكد كرامته

فى نفوس الناس ولكنهم ظلوا لا يحبونه ، لأنه لا يجرى معهم كما كان يجرى سواه والناس عبيد أهوائهم .

وشقى بالناس وضاعف من متاعبه أن وجد من رؤسائه من أخذ يغريه بأسلوب رقيق . وآخرون أغروه بالعنف والتهديد ، ولكنه صمم ووقف يحارب فى كل ميدان ليدافع عن كرامته .

ولكنه ؛ كان يحارب فى غير ميدان . لقد كان يقاوم اتجاهات عامة فى كل نفس إنسانية ويخاصم تيارت واضحة قد تعارف عليها الناس .

- ٥ -

الحب الأول ... هذه الإنسانة التي لا تزال بعد عشرين عاما قائمة بروحها في أعماقه « ف » .. تلك الفتاة التي لا يزال يذكرها في حنان ، ويتمنى لو تحقق له الاقتران بها ؟ إذن لوفر على نفسه كل ما اتى في حياته من عذاب . بل لعل توجيه القدر خط حياته عنها إلى غيرها — بما في القدر من إرادة نافذة حين يقطع ما اتصلت به العاطفة ويفرض ضدها — إنما يكتب الخير دوما ، فليس الخير دائما هو كل مانراه ونحبه ونتطلع إليه

كانت متماسكة العود ، مصقولة الوجه ، رائعة الحسن . جمة الرواء ، لها ابتسامة من آيات الحسن الغلاب .

.. من نافذتها التقيا ، بالنظر — هكذا الحب في الريف — كانت هي التي التفتت إليه ونبهته إلى وجودها . وربط الحب بين قلبيهما . وعرف صاحبنا السهاد . ورسائل الحب . . كان في السابعة عشرة من عمره عند ما خفق قلبه أول مرة .

ومضت أيام حلوة هنيئه . كلها وداد . كلمات يلقيها وأخرى يسمعها ، في كل غروب . عند ما يكون متجها نحو منزلها ، يراها في انتظاره في نافذتها . كان يدير في خاطره عبارة يقولها . لا يسمح الوقت

بأكثر منها . إنه لا يستطيع أن يتوقف أو يطيل النظر . . . كانت ابتسامتها هى نصف الحديث ونظرتها الرائعة من عينيها المشرقتين تعطيه كل شيء . .

لطالما حلم بهاتين العينين . ورآهما فى ظلمات الليل ، تبرقان فى ضياء عجيب ، كانت هى الأخرى تقول له عبارة .. وأحيانا كان كل منهما يتكلم . . أو يصمت ، فى انتظار كلمة الآخر . وقلما كان أحـــدهما يفهم الآخر .

ثم أتيح لهذا الحب أن ينمو . فقد كانت تخرج فى بعض الليالى إلى زيارة الأهل . ومعها خادمتها القصيرة . فكان يترقب موعدها . ويقف تحت ضوء « الفانوس » ينتظرها وهى تتقدم فى خطواتها الرشيقة الدقيقة . وقد لبست لباسها الريفى الأنيق . وبدت فى وجهها المستدير المشرق .. تقول كلمة أو كلمتين كأنما تحدث خادمتها .

فإذا مضت سبقها حتى يتخذ موقفا آخر ، ثم ينتظرها . . حتى يراها مرة ومرة .. وينقضى الليل فى انتظار عودتها فيودعها .

أما رسائلها ؛ فقد كانت آية فى الرشاقة ، والبساطة . تكشف عن نفس تجمعت فيها كل عناصر الحب والخير البساطة مع السذاجة فى غلاف من النقاء والطهر . كانت تحبه وكان يحبها وكان كل منهما يتمنى أن يكون للآخر .

أما هو فكان يتطلع إلى حياة أخرى . كان هناك فارقا بعيدا يراه هو

ولا يرضى أن يتخطاه . ولو تقدم لارده أهلها فهم يعرفونه ويعرفون أهله ولكنه كان يرجو أن ينتظر حتى يصبح فى وضع أكثر ملاءمة وكفاية . .

وفى الوقت الذى وصل إلى مكانه المرموق . كانت قد أجبرت على زواج الريف الذى يفرض دون اختيار .

إنه ما يزال يذكر كيف ردت إليه زجاجة العطر والمنديل الحريرى لأن تقاليدهم تأباه ..

* * *

ذات ليلة نزلت إلى نافذتها فى الطابق الأول ترقبه . فلما أقبل استدعته وحدثته وطلبت إليه أن يحضر لها شيئا . وفرح صاحبنا ومضى يحدثها وقد نسى كل شىء . كانت هى المرة الأولى التى يراها قريبة منه لا يفصله عنهـــا إلا « شيش » الشباك ويحس لفحات عاطفتها . وصوتها الملائكى يرن فى الليل الساكن . . وقد خلا الطريق من كل أحد . بينما كان القمر يرسل ضياءه من وراء أشجار النخل المتناوحة .

كان هذا هو اللقاء الأخير . فقد ظهر فجأة ذلك الشاب الذى كان يرقبه منذ وقت طويل ويعلم من أمرهما بعض الشىء .

ووجد صاحبنا أن خير وسيلة لدرء الخطر عن حبه أن يصادق هذا الرجل الماكر . وأن يعرف أوقات ذهابه وإيابه وسفره وعودته . وأن ينتهز فرصته عندما يغرق فى لعب الورق فيغافله ويمضى ركضا إلى منزل الحبيب ليلقى نظرة أو نظرات .

ولكن القدر كان لا يريد . فاضطر إلى السفر . وتسلم عملا جديداً وأصبح على أهبة الأمر من حبه ، غير أن أنباء زفاف فتاته إلى غيره لم تلبث أن لحقت به فأزعجته وملأت قلبه رماداً . .

وفى العام الماضى عند ما كانت العربة المسرعة تقطع الطريق إلى هذه البلدة التى خلفها منذ عشرين عاما ، فى الليل . والقمر يرسل ضياءه على الحقول والمزارع ، كان يهمس فى أذن السائق أن يترفق قليلا حتى يشم عبير هذا الجو، الجو الذى تعيش فيه فتاة أحبت وصدقت فى حبها .. ولكن الدنيا كلها وقفت فى وجه حبها . .

- ٦ -

أقام فى منزل صغير يطل على غدير من الماء ، ومن وراء الماء عشش قليلة ، ثم بعدها الحقول الخضراء . .

تلك كانت صومعته فى القرية الثانية ، فيها كان يقرأ ويكتب . . صحف كثيرة تصدر فى الأقاليم يراسلها بخطراته وآرائه ، لكنه غير راض عن نفسه . .

أن العمل يستهلك يومه كله فيعود آخر النهار مكدوداً ، وتطلعاته إلى القاهرة ما تزال تدفعه فى قوة . .

وأحس بالوحشة . .

وعرض عليه صديقه طه أن يشاركه بيته ومسكنه ، وكان معهما ثالث . يكبرهما فى السن .

امتزج صاحبنا وطه امتزاجا كان مبعثه تشابه مذاهبهما فى الحياة وفهمهما للأمور ، وذكريات قديمة من أيام القرية الأولى .

وكان طه كريما يدلل صاحبه ، ويقوم عنه بأعمال البيت ، ويعد له الطعام ويغسل الأطباق وينظف المنزل ، ولا يدع لصاحبه شيئا .

وكانا يمكفان فى المساء يتحدثان عن الحب ، كل منهما له ذكرياته وآماله . . لولا الحوائل المادية .

ولطالما بات طه يقرأ حزمة الرسائل . . حيث العاطفة الملتهبة تشرق من رسائل فتاته . صورة رائعة حلوة ، من الاسكندرية .

وسافر طه إلى الاسكندرية ، وبعث لصاحبه يقول أحييك تحية البحر الأبيض المتوسط اشواطىء الاسكندرية .

كان منزلها فى صدر الميدان العام ، تجاه القصر العربى الجميل ، شبيه قصور غرناطة وقرطبة والحمراء !

ولطالما زارا معا فى هذا القصر صاحبه الأديب .

* * *

وفى الصباح الباكر كانا يخرجان إلى المزارع ، يسيران طويلا حتى ترتفع الشمس ، ويلتقطان قطرات الندى ويمسحان بها وجوههما فى اخوة عجيبة وتطلع إلى الحياة وتفاؤل بالغد القريب .

وفى المساء كانا يتجهان صوب الإبراهيميه ، فلطالما ضاق وصديقه طه بالقرية وجوها وصورها المكرره ، وايامها المتشابهة .. فارادا أن يعجلا الخروج من القريه ، إلى الابراهيميه وسيله المتاع بالهواء الناعم ، والحديث الشهى ..

وانطلقا رويدا بجوار قنطره العزاء ، هذه التى وعت ما وعت وضيعت ما ضيعت من ذكريات السنين ، عرف عندها عشرات من شباب الأصدقاء ،

كانوا يخرجون ميممين جمال الإبراهيميه وطريقها الطويل إلى قنطرة العزاء يقصون الوانا من الذكريات والحوادث والأقاصيص ، ثم مضى كل هؤلاء ، وخلفوا ذكريات عاطرة عن أمسيات رغيدة ..

.. يوم كانو يقفون عند الحديقه القديمه التى أهملها اهلوها فبدت على حوائطها واشجارها آثار الذل والكآبه ..

منظر الماء يضطرد ناعما ، لايرتطم بالشاطىء إلا فى خجل وحياء ، والقوارب الخفاف تجرى على سطحه تحمل صيادوا السمك الفقراء الصابرين ، حيث يقضون ليلا طويلا .. وقد يطول بهم الانتظار يرقبون النجم ، يتوسلون بالقلوب الواجمه هناك فى الأكواخ تنتظر أوبه الرجل ومعه الرزق يبيعه بدراهم !

فى ذلك المساء ، عندما دنا وصاحبه من الإبراهيميه . كانت الشمس على سنان الجبل تنحدر نحو المغيب مخلفة حسرات وخيوطا من الحزن والحرمان وعبر البصر الشاطىء ، حيث ضريح الشيخ تحوطه (مصلاة) ساذجه ، مبنيه بالطوب ، والقبر يبدو متواضعا جميلا ، ..

كان التطلع إلى الغيب ، والأمل فى الغد ، يدفعانهما نحو ذلك الضريح .. حيث صليا بعد أن غمسا أقدامهما فى الإبراهيميه متوضئين ،

لعل هذا قد بعث بعض السلوى فى النفوس وخفف من شقوة الحياة المتجددة ، وفتح للقلب أبوابا جديدة من الضياء والهناء ..

- ٧ -

ضاق بالريف . وتحولت نفسيته إلى صورة من التشاؤم العنيف وأخذ الانقباض يغزوه ، ويقيم فى أعماقه .

أن الرغبات القائمة فى أعماق النفس تشقيه . هذه الحياة فى الريف تصليه كل يوم عذابا وتزيده شقاء . . وهو يطلب التحرر منها دون جدوى . فما يلبث أن يسجل أناته وآهاته :

« القلب أبدا متمرد يذكر أشواقه .

« هذه الوظيفة سجن من السجون المتحركة التى تتمرد لها النفس كل يوم وكل لحظة .

« متى ينطلق قلبي خالصاً .

« متى تنطلق نفسى متحررة من تكاليف الأعمال المحدودة .

« متى أتحرر لأحمل عبء رسالة أعظم وأجل خطراً .

« ليل الشتاء . . عندى شقوة متجددة .

« إنما أقضى ليلى ساهر الجفن . مسهد الطرف . خافق الفؤاد ، وذهنى الكليل يطوى البلاد ويقلب الذكريات ، عسى أن يجد بين ظلمات الليل قبسا من النور .

« كم تلقانا الدنيا بوجهها العابس المتجهم . وتصاحبنا فيها صنوف من الاعنات ، وتعاسينا بالوان من الضيق . فلا نجد قلبا نؤوب إلى حنانه أو روحا نجد عندها العزاء .

« هى ليالى الشتاء نقضيها دون أنيس أو سمير .. إنى أخشاها وابغضها .

« . . إن الربيع يزعجنى . ويقبض نفسى حينما تتفتح الأزاهير وتشرق أوراق الورد .

« . . ويجىء الغروب فيثقل على نفسى . ويضيق صدرى وترجع روحى إلى ذكرياتها الحزينة فلا أجد عنها مصرفا . . وأظل أسير مطاطىء الرأس . . إلى أن أصل إلى شاطىء الابراهيمية . . هناك يكون الظلام قد كسا القرى المجاورة بحلة غريبة نادرة ، هى مزاج من الظلام والنور . . حين يدخل الليل إلى النهار ويفيض عليه ضوءه وبهائه ، وحين تبدو أشباح النخيل وهى ترنو إلى الفضاء فتثير فى النفس ألوانا من الشوق والحنين والوحشة إلى شىء بعيد مجهول .

« . . لقد لقيتنى الحياة منذ درجت بوجه حزين . . فقد حرمتنى أن أسعد بالآمال التى ظلت تمتلج فى نفسى .

« . . ومضيت أقاسى الوحشة والوحدة والظلام والحرمان . . منذ عشر سنين ، كنت أخشى الصباح وأخفى وجهى تحت الغطاء حتى لا أراه

كنت أصم أذنى حتى لا أسمع تغريد الطيور وزقزقة العصافير ونسائم أعواد الزهر المترنحة فرحا بالنور .

كنت أخشى الصباح لأن قلبي كان قطعة من الحزن الغامر المقيم .. »

« .. لا تزال حياتى قلقة ، وكيف تتركز وأنا فى الريف ، لاهدف أمامى غير القاهرة . . لو وصلت إليها لاستقرت أعصابى واسترحت ، ولاستطعت أن اندمج فى حياتها الصاخبة وأنطوى فى تيارها الهائل .

ولا زلت أمشى فى طريق مظلم . اضيئه لنفسى وما اهتديت فيه بهدى أحدمن الناس . ومن فى الريف يهدى المفكر إلا روح المفكر نفسه .

« .. كان ليلا طويلا . ذلك الذى أمضيته أمس . ليل ظننت أن لن يطلع له صباح .

كنت فيه قلقا . أنام واستيقظ فى سرعة . عقلى غامض ونفسى مضطربة . لقد كانت هناك أشياء مبهمة غير واضحة تتردد فى أعماق .

« .. هذه الأيام التى تمضى فارغة تافهة . كأنها ظلال أيام ، وارحمتاه لهذه الأيام التى تمضى دون أن نسعد بلحظاتها لحظة لحظة .. وساعة ساعة .. أنها تمضى محملة بالهم والقلق والشقاء . . فى انتظار الأمل الموعود .

« .. كثيرا ما تضن النفس حتى بالابتسامة الصافية ، لأنها لا تجد لحظة من السرور الخالص الذى تفيض بالقلب ويفيض بها القلب .

« .. لقد حرمت نفسي ذلك الجزل والفرح والمرح .. منذ فهمت الحياة حق الفهم .. يوم كتبت كلمتي « أحمد الضاحكين » .

« .. ماذا هناك ! ما هو ذلك العنصر المجهول الثائر في أعماقي الذي يؤرق هدوئي ويقسر هنائي ويشعرني بالنقص ويدفعني إلى الكمال .

« أن الشتاء يعيد إلى روحي ذكريات عزيزة ، عن قلوب طالما أحبت ووفت ، ثم استبد بها الظلم البين والغربة فحطمت أوتارها . . »

— ٨ —

لم يكن صاحبنا قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، حين نزل القرية ، وأحس بالفارق البعيد بين مدينته الحبيبة وقد خلف فيها ذلك الوجه ولا مكان لها فى غير نفسه هو . . .

لم يكن فراقه لأهله ، وأمه وأباه ، ممـــا يزعجه كثيرا فقد كان فى طبيعته ذلك الترفع عن الدموع والإغضاء عن الحرمان . كان يراها نقصا فى الرجولة أو شيئا من مظاهر الطفولة . .

وما دام هو قد بدأ حياته فى هذا السن ، ايستعين بالعمل على أن يتم دراسته فما عليه من أن ينـكر من نفسه هذه العواطف . وأن يقبل على حياته الجديدة راضيا بها .

هناك فى حارة ضيقة وجد مسكنا . . إنه بيت من غرفة واحدة لها سلم يصعد إليـــه ، والنافذة تطل على أكوام من الحطب والوقود فوق سطوح المنازل . .

لم يكن عنده غير سريره الصغير ، ومكتبه الذى جمع أشتاتا من الأوراق والصحف وبعض الـكتب .

يذهب صاحبنا إلى عمله مبكراً ، فيقضى فيـه سحابة يومه حتى

الغروب ، إلا من ساعة يتناول فيها اللقيمات ، يلتهمها بسرعة ليعود أدراجه.. وفى المساء يعود مكدوداً مجهدا .. يحاول أن يقرأ أو يكتب فلا يجد السبيل إلى ذلك بعد أن أخذ منه التعب كل مأخذ وأسلمه إلى نوم عميق..

وفى بعض الليالى يتاح له أن يخرج ليزور بعض من عرف من أهل القرية ، يمضى معهم ساعة يستمع إلى أحاديث الريف .. لطالمـا وجد فى هذه الأحاديث طرافة ، أحيانا يذهب إلى أطراف القرية فيشاهد الحقول ويتطلع إلى قلبه وهو يرى من بعيد أضواء مدينته ..

كان يصل إلى المنزل بعد سهرته تلك ، وقد حمل علبة الثقاب ، فإذا ما أدار المفتاح اوقد العود ، وأغلق الباب خلفه . ومضى يصعد السلم إلى حجرته .. فإذا استلقى لم يعد يوقظـه إلا صوت فأرة صغيرة تقرض كسرات الخبز الذى كان يأتيه من بلده .. بل أحيانا كانت تقفز فوق فراشه..

فإذا ما طلع الفجر استيقظ على صوت ذلك الرجل الذى ينادى على العمال الذين يسكنون إلى جواره ليذهبوا إلى الحقل ..

فى هذه اللحظات الناعمة من الصباح الباكر كان يحلو له أن يخرج إلى الطريق العام .. ويوغل فيه وحيدا فريدا . وقد حمل فى يده هذا الـكتاب أو ذاك . أجمل المناظر عنده عربات الرش وهى تملأ فناطيسها الـكبيرة بالماء ثم تدفعه لتعبد به الطريق . ولطالما كان يوغل فى هـذه الحقول ليلمس قطرات الندى فوق أوراق الشجر .

وهناك على « مصطبة القاضى » يقضى سحابة من نهاره يتحدث إلى « لطفى » ذلك الشاب الذى كان يكبره فى العمر والذى طالما أعاره قصص الأهرام التى كان يترجمها طونيوس عبده وغيره ·

كان أصدقائه فى هذه الفترة لطفى وفوزى ومختار . وقريبا من أحضان هذه الأسرة الكريمة أمضى عامين ، كانت السيدة الكبيرة تحبه وتحوطه بالعطف وكان الشيخ الكبير يسأل عنه ، حقا ؛ لقد كان يحس فى ظلال هذه الأسرة بأن روحا كبيرة ترعاه ....

وقضى عاما طويلا فى هذه البلدة الصغيرة يحاول أن يهرب منها فى المساء ، فيمضى فى ذلك الطريق الممتد ، وقد اصطحب صديقه المقرىء الوسيم الذى كان يجيد الغناء كما يجيد القرآن وصديقه الأديب الحائك ، الفارع الطول الذى جاء من القاهرة ليعمل فى الريف ، وقد ضاق ثلاثتهم بالريف ، كان حديثهم عن سيد درويش وأغانيه ، والشيخ رفعت وترتيله ، يريد الحائك أن يعود إلى حيث أهله وأقاربه · ويريد المقرىء أن يتاح له أن يقرأ فى الإذاعة ، وكانت الإذاعة حديثة · ويريد هو أن يكتب فى الصحف ويظهر اسمه بين كبار الكتاب · وقد عاد الحائك بعد قليل وبعد سنوات لحق المقرىء بالقاهرة وأقام فيها ووصل إلى بعض ما يريد ثم جاء دور صاحبنا بعد عشر سنوات · · ·

كان ثلاثتهم يقطعون الطريق الزراعى بعد الغروب يتحدثون عن كل شىء ، حديث الحرمان والشوق والحب ، · · · وكان هذا أشبه بذلك

الحديث الذى كان يقطع به مع أصدقائه : حلمى وحمدى وصالح ذلك الطريق الزراعى الذى يقع فى بلدته على جانب شريط قطار القصب .. يقرأون المنفلوطى ويحفظون عباراته الحلوة فى أول قصة (ماجدولين) .

كانوا يتحدثون عن ضيق الواقع وأمل الغد ، يحسون كأنما الحياة فى القرية تضيق بهم .

وجاء رمضان وعاد إلى بلدته بأعجوبة ، ركب إلى جوار ذلك الحوزى الذى يبيع الجاز . وكان فرحا وعهد الحافظ إلى جواره يضرب « البغل » بكرباج صغير فى يده ثم يغنى .. كان موعد القطار الأخير فاته ، وقد أحب أن يقضى المساء فى بلده الحبيب . ويمر من تحت نافذة معلمته الأولى ..

لم تطب أيامه فى هذه القرية كما كان يريد . انتقل من دار إلى دار ، لقد أحس لأول مرة أن ذلك الضيق الذى يغمر نفسه قد بدأ يتحول إلى حنان وفرح .. ترى هل تبددت تلك الظلمات والغيوم التى ملأت نفسه بالانقباض طويلا ..

كان صاحبنا لا يفتأ يفكر وهو فى أعماق الريف ، فى رحلة إلى أوربا ليتم دراساته ، لقد كانت كتابات الصاوى وزكى مبارك تثير فى أعماقه ذلك الأمل ، لقد عادا من الغرب وأخذا يملآن الصحف بالحديث عن تلك الحياة الحلوة الرائعة التى عاشاها فى باريس ...

وكان الطريق يبدو طويلا أمامه ... وكانت ظلال الحب القديم لا تزال تغمر نفسه ..

وبرزت « ف » فجأة فى طريق حياته .. حقا هذا هو الحب الأول ، ولا تزال هذه الإنسانة تبدو من وراء ضباب عشرين عاما ، قابعة فى أعماق النفس كأنما قد عرفها بالأمس القريب .

- ٩ -

فى ساحة السطح ، حيث كانت تتدلى فروع التوت وتتشابك مع شجرة النبق ، كان يحلو له الجلوس ، لا شىء يقطع هدوءه إلا ذلك الصوت الذى يدق دقات ، صوت وابور الطحين القريب ، دقاته الرتيبة التى لم تعد مزعجة ، فإذا أطلق ناظره فهناك ذلك الحوض الواسع من الأرض السندسية الخضراء لا يقف دون حدودها الطرف ، حتى يلتقى هناك بخط السكة الحديد . .

ولكنه كان فى قراءاته وعزلته هذه قلقا لا يستقر طويلا ، كان هناك ذلك الشعور الغريب الذى يغمر القلب بالتطلع إلى الغد ، الغد الذى يمضى بطيئا ، أياما متشابهة ، بين الدراسة والعمل ، أتاحت له فرصة التأمل الطويل ، لم تشغلها غير تلك الدراسات التى اختارها بالمراسلة فترة ، فإذا أقبل الظهر ، كان لا بد أن ينطلق حيث يطالع قطار القاهرة القادم بنظراته ، كأنما يلتهمه ، أنه قادم من عند الاحبة . . وهو يحمل أيضا الصحف : الأهرام أولا والمجلات الأخرى فإذا جاء يوم « الأحد » كان ذلك أحب الأيام إليه ، ففيه تصدر مجلة « كل شىء » ولا بد أن تدفع الأم هذين القرشين من أجل سعادة الابن الأكبر . . ولطالما حصل عليها

بمشقة ، ناعية عليه أنه يقرأ الكثير من المجلات والصحف ، ويشغل نفسه بذلك من العمل الذى يمكن أن يفكر فيه . .

وطالما لجأ إلى جدته الحنون فى غرفتها الخاصة حيث تقضى أيام شيخوختها من أجل هذين القرشين ، فأعطته معهما قبلة ، كم كانت سمحة كريمة ، تحبه ولا ترد له طلبا !.

هذه هى النافذة إلى القاهرة ، وهذه مطالع التعلق بالصحافة ! فإذا جاء الأصيل فهو الخروج إلى المصلى . .

« المصلى » قائمة أمام الدار ، بناها أبوه بالطوب وأقام لها حاجزا وفرشها بالحصير وأذن فيها للعصر والمغرب والعشاء . . فهى مجلسهم هذه الفترة . . معه كتابه أو صحيفته ، وقلما كان يستمع إلى حديث الناس . .

ولطالما استمع إلى صوت والده وهو ينادى للصلاة فى أعجاب ، وطالما دعى إلى الآذان . . ولكنه كان يحبه من فوق المأذنة . . حين يقف فى الفجر ليرتل تلك الكلمات الحلوة فى الاستغفار حتى إذا انتهت صلاة العشاء . . كان ترقبه للقطار القادم من القاهرة يسبح فى الظلام بين الأشجار ، ونوافذه المضيئة يخفق لها القلب . .

أنه يوم الخميس ، حيث يرد البلاغ وفيه صفحة الحديث ذو شجون : يكتبه الدكتور زكى مبارك ، صديقه الذى أحبه ، الرجل الذى رد عليه خطابه من دون كل أدباء القاهرة وصحفيها . . فهو شغوف به متابع له ، يراه استاذه وأمامه فى البيان ويطالع موضوعاته فى أعجاب .

ولقد يمضى أحيانا مشرقا حتى يصل إلى شارع المركز ، فيلقى صديقه

محمد ابن الباشمحضر ، حيث يطالع الهلاغ كل يوم .. ويقرأ لابرهيم المصرى واطنى جمعة وسلامة موسى وعبد القادر حمزة ..

أما يوم الخميس فلا بد أن يشترى البلاغ من أجل زكى مبارك وحده !

وفى هذا المجال كان صاحبنا ينطلق .. حتى منزل الدكتور أمين .. ينظر من الأسوار إلى ذلك المجلس الذى يجتمع فى الحديقة إذا كان الصيف ويضم القضاه والأطباء والعلماء .. يتحدثون ! .

ولطالما رأى الشيخ مخلوف بلباسه الأزهرى الأنيق ماراً أمام منزلهم كل أصيل فى طريقه إلى ندوة الدكتور أمين ، فما أن يلمحه ، فى مشيته العمرية الحلوة .. حتى يذكر مشوقا كيف يدار الحـديث هناك .. ويتناول كل شىء .

مرة أو مرتين اتيح له أن يجلس قريبا من هؤلاء الذين كانوا فى نظره الأعلام ، يستمع إلى حديثهم ، ويضحك لفكاهاتهم ، معجبا، وربما ساخراً ولـكنه كان يتطلع إلى كلمات قليلة ربما رسبت فى أعماقه طويلا .

فدائرة معارف فريد وجدى ومقدمة ابن خلدون سمع بهما هناك ..

واستطاع أن يستعيرها من الدكتور أمين ويقرأ المجلدات العشرة .. فى سن السابعة عشرة ..

وكتب أخرى ، كثيرة ، كان يحصل عليها ..

ولقد يمضى أحيانا جنوبا فى شارعهم حتى يصل منزل الشيخ طه ،

ذلك الشيخ الطويل الأسمر ، الاجش الصوت ، «أمام المسجد» ، أن لديه مكتبه عامره ، ولكنها من الكتب الأزهرية الدينية .

نفس الكتب التى رآها فى فجر حياته فى بيتهم ، كتب جده الشيخ أبو العلا ، أنها المخطوطات المكتوبة بالحبر الأسود على الورق الأبيض السميك .. وأوائل الفصول مكتوبة بالحبر الأحمر ..

لكنه كان يتطلع إلى كتب أخرى ، إلى كتب الفكر والأدب ، إلى مؤلفات طه حسين وهيكل والعقاد والمازنى ..

وربما اتجه إلى القيسارية ، حيث دكان عبد الرحمن خرابة ، كان يجلس هناك ليقرأ كل الصحف ، فعبد الرحمن شغوف بها ، يشتريها جميعا ، ويدردش مع الذين يزورونه حول ما يكتب فيها .

وربما اخترق القيسارية حتى بلغ دار محمد خرابة ووقف من بعيد ينظر إلى هذه المكتبة الضخمة الأنيقة التى كان صاحبها حفيا بها ، يجمع لها الكتب كلما قدم إلى القاهرة ويجلدها ثم يغلق عليها الباب فلا يقربها أحد ..

وربما انحدر حتى اخترق الساحلية ، حيث مجلس العمدة « الكيلانى » تحت الشجرة الضخمة ، حيث يدور الحديث طليا انيقا فى السياسة وشئون ديروط ، وأبناء ديروط الذين فى القاهرة ، مجلس مهيب ، ولكنه طريف تقطعه عبارات الدعابة الحلوة . والسخريات الذكية .

فإذا اتجه حتى اخترق « القناطر » فهناك جو جديد ، مجالج ومبان

- ١٢ -

مضى يقطع أيامه فى قريته تلك ، يقرأ ويكتب كل ما يقع تحت يده من الكتب والصحف والمجلات عملا بوصية صديقه زكى مبارك ، مردداً كلمته « واصبر حتى تصبح قوة أدبية كبيرة هنالك تجد الأدباء ينصفونك وهم راغمون » .

كان يبيت فى بلدته تلك بعد أن يهرب فى المساء تحت ستار الظلام ، ليقف هناك على رأس الطريق ينظر فى الظلام علَّه يجد سيارة فى طريقها إلى الشمال . فإذا جاءت فرح بها وآوى ليلته هناك ، وفى الصباح الباكر يقطع الابراهمية واليوسفى مشاهداً جمال الطبيعة فى هذه اللحظات ومع إشراقة الشمس يركب السيارة إلى مقر عمله ! . ويصل إلى مكتبه قبل موعده .

كم كانت هذه الصباحيات الباكرة ممتعة ، كم كانت مريرة فى نفس الوقت . كان يغادر فراشه الدافىء فى أيام الشتاء ليواجه البرد القارس ، ويتطلع إلى النوافذ المغلقة ومن ورائها الأضواء ما تزال تلمع ، والناس نيام يغطون فى أحلامهم ، كان يتمنى على الزمن لحظات هناء لا تضطره إلى هذا الكفاح الشاق فى هذه السن الباكرة . .

ومضت أيامه مريرة مجهدة فى سبيل تحصيل العيش ، لم يكن يهونها عليه إلا صديقه « طه » ذلك الرفيق الحبيب الذى كان يحنو عليه والذى كان يكبره بسنوات قليلة . . والذى كان مثله يكافح العيش فى هذه السن الباكرة ويتطلع طامحا إلى آمال بعيدة ، وكان أشق ما يزعجه ساعات القيلولة فى الصيف ، تلك التى يقضيها الناس فى بيوتهم نائمون . وكان يقضيها هوق العمل المجهد يراقب ويكتب ولا يغفل .

كان يزعجه أن يقضى ليالى الشتاء ساهراً حين يعكف الناس على مواقدهم يسمرون ويمتعون بالحديث والمصطلى .

وعند ما سقط من الدور الثانى لم يطل مقام اعتكافه وعاد يضطرب فى الحياة مرة أخرى ليواجه عملاء المصرف الذين كانوا يلقونه كل يوم ، ووجد من الناس أطماعا وأهواءاً حاول أن يتجنبها دون أن يصطدم بالناس . كان فى طبعه تلك البساطة والصراحة وذلك الوضوح فأعجزه عن مجاراة تلون الناس ونفاقهم وضاق بهم أشد الضيق وأنكر هذه الأساليب . ولكنه اضطر إلى حد ما أن يأخذ الأمور باللين مرة وبالشدة مرة .

وشقى من وراء طبيعته البسيطة الواضحة . . لم تنفع المحاولات المختلفة فى اغرائه لتغيير طبيعته ليمضى مع الناس فى طريقهم .

وكان له فى ذلك جهاد مرير وكفاح طويل دائم . أكد كرامته فى نفوس الناس ولكنهم ظلوا يكرهونه لأنه لا يجرى معهم كما كان يجرى سواه . .

وشقى بالناس . وضاعف فى متاعبه أن وجد من زملائه من أخذ يغريه بأسلوب رقيق ومن اغراه بالعنف والتهديد . ولكنه صمم ووقف يحارب ليدافع عن كرامته ...

كان فى خلاله متاعبه يذكر شابا نابغا من أسرتهم سبق ، طموحا ، وكافح بسلاح العلم والذكاء حتى أحرز التعليم مجانا فقد كان أول الشهادات على القطر كله ، أنه ليذكر اليوم ذلك الرجل الذى دله على الطريق .. الطريق الأوف . أنه خاله الذى أحبه ، كانت خطاباته المطولة إليه من آيات النصح والتوجيه ، كانا بعيدين، هذا فى الريف ، وذلك فى القاهرة ، مازال يذكره حين جاء يزورهم ، يقرأ الصحف ويعلق على الأحداث ، ويعرف شوارع المدينة ، يسلم عن هذه وتلك ويستعيد ذكريات المدرسة والبيت والجيران .

كانوا يصفونه بخفة الظل وحلاوة العبارة ، وكانت له الأعيب وأفاكية وطرائف وله قصص ضاحكة ، ربما كان مغرما أن يطلى وجهة بالفلين المحترق حتى يبدو عبداً أسوداً ثم يدخل على الضيوف ، الخادم النوبى ،وربما أدعى أنه شرب خمرا ومضى فى تمثيل دور السكير إلى أبعد حد ، دخل على قريبة عجوز فأدعى أنه من المحضرين يبغى الحجز على أثاثها ، فاهتزت السيدة وأنزعجت ، ومضى فى مناورته الى النهايه ثم كشف لها عن نفسه ..

لطالما حدثه عن القاهرة ، وفتح أمامه أبواب الأمل ، علمه أسلوب الكتابه الأدبية ، منعه من نظم الزجيل ، ودعاة إلى كتابة المقال الجاد قال له : أن الذى لايعلك فى القاهرة قرشا لايساوى قرشا ومنعه من الأندفاع نحو القاهرة تحت بريق الأمـل .

وعاش يحبه كصديق، وأرتبطت نفسه به كصفى ، وأرتفعت مكانته عنده

على القرابة وصلة الدم ، وعاشت صورة إبراهيم فى نفسه . صورة محبة لم يفسدها الزمن ، ربما تصارعا فى الراى واختلفا ولكن حبهما ظل قويا ..

كان « إبراهيم » صورة ريفية من صور النبوغ ، يراها هو ، ويحاول أن يلحق بها . أنه هو الذى أخذ بيده إلى المدرسة أول يوم ، نفس المدرسة التى تعلم فيها أول الشوط : مدرسة مصطفى كاشف ...

وفيما بين الابراهمية والهدروطية واليوسفى ، شواطىء ، وقوارب ، وجلسات عند الغروب ، تشرح الصدر وتملأ النفس بالأشواق الحلوة العذاب ..

وفوق القناطر بعد الغروب يحلو الحديث ، وتتجدد الذكريات ، فإذا أصبح الصباح ، كان صوت صانعى المراكب عاليا .. فلطالما وقف صاحبنا هناك يرى كيف تصنع المراكب من الخشب ، ثم توضع لها الشحوم بين جوانبها وتدق تلك الخبوط السوداء المدهونة بالقار حتى لا يتسرب إليها الماء ، أنها صناعة الصبر الطويل ، فإذا انتهى أمرها بعد جهد وعرق .. أنزلت إلى الابراهمية ، وكانت فرحة ورحلة ...

وربما اتجه صاحبنا إلى المسجد الكبير ، ورفع رأسه إلى تلك المئذنة العالية ، أنه المسجد الذى أنشأه المأمور السائح ، ومن بعده ، أحيل إلى المحاكمة فلربما أخذ لنفسه شيئا من المال الذى جمعه لله ..

وهناك فى زاوية الصدفة الغربية يجلس ذلك الشيخ الأبيض الوجه المهيب ، يتحدث بعد صلاة العصر ، حديثا جميلا ..

أو يخطب الجمعة الشيخ بكر .. أو يصلى التراويح فى رمضان ، أو يستمع

إلى قراءة الكهف من الشيخ زرزور ، وربما اتجه إلى المسجد الصغير فأدار الحلقة التى ترفع الماء من البئر لتملأ الحنفيات ، أو صعد إلى المنارة فأذن . . وربما دخل حلقة من حلقات الذكر ، فقد استضاف أبيه الشاذلية عند ما قدموا إلى بلادهم ، وذبح لهم خروف العيد قبل موعده ، ومرضت الأم من أجل هذا الفأل ، وربما ايقظوه قبل الفجر ليخرج معهم حيث الصلاة خير من النوم .

وكل شيء فى ديروط يوحى بدور شبابها فى ثورة ١٩١٩ ، هؤلاء الذين قتلوا الضابط الإنجليزى والقوة فى فوهة القطار ، وباعوا الآخر على عربات اليد ، وكيف نصب الإنجليز لهم المشانق فى المدرسة الابتدائية ، وحكموا على العشرات منهم بالإعدام والمؤبد . . وكان أبناء هؤلاء المجاهدين زملاء له فى المدرسة يتحدثون عن ذلك اليوم !

والتقى هو بمن خرج منهم بعد السجن الطويل ، واستمع إلى عبد العظيم عوض الله يحدثه عن قصة خمسة عشر عاما فى الليمان ، من أجل مصر .

- ١١ -

كانت تجربة عميقة تلك التى مرت به عند ما زهد فى الدنيا ورغب فى أن يعتكف . لم يكن بطبيعته مسرفا أو غاليا فى حب الحياة . ولم ينزل إلى ميادين اللذات أو الشهوات ثم انصرف عنها بعد أن أوغل فيها ، كما حدث لكثير من الذين دفعتهم ذنوبهم إلى التصوف .

ولكنه كان بطبيعته قريبا إلى الوحدة والعكوف على النفس . كان متطلعا إلى الحياة راغبا فى أن يعيش فى القاهرة ، يسوم مرح اللهو ، ولكن الرغبة التى كانت تملأ نفسه ، وتأخذ عليه عواطفه وأحاسيسه قد امتد بها الزمن فأصابه يأس مرير قاتل ؛ صور له الحياة التى يحياها ضيقة مكررة فاترة .

لعل يأسه من الوصول إلى غايته هو الذى رده إلى الوحدة ليوغل فيها ، ويسرف فى الصوفية فيذهب مذهب الدعاة . يطلق لحيته ويقرأ كتاب الأحياء للغزالى ، ويقضى ساعات مع البخارى . ويستيقظ فى السحر ليصلى ويتهجد . ويدعو الله دعاءاً طويلا ، ويصوم يومى الخميس والاثنين .

وإذا به يبدو غريبا فى محيطه . ينظر إليه الذين كانوا يعرفونه فى الماضى فينكرونه ، لم يعد يقبل الهدايا . أو يحضر الاحفال أو يشارك فى المرح . علاه وقار وإغضاء وبدت فى عباراته علامة تحرز واقتضاب ، وفى حركاته رزانة واتئاد ..

ومضى صاحبنا يجاهد فى بحر خضم من شهوات المال ومطامع الحياة البراقة ، واضطرمت فى نفسه عوامل الصراع ، ومضى يقاومها ، لكنه كان فيما يبدو أعجز من تيارها القوى فجرفته ثمة .

كان التصوف يطوف به . عرفه أبوه وعاش فى محيط أسرته ، وكان يعرف طائفة من دعاة وحدة الوجود . ومذهب الحلول واستمع إليهم . فكان ارتباطه بهذا اللون وإيغاله فيه طبيعيا مع نفسيته التى عجزت عن اللحاق بموكب الحياة والاندفاع فيه ..

وفجأة التقى بالرجل الذى حول اتجاه حياته وحلقه خلقاً جديداً . .

كان ذلك فى أمسية يوم جنون ، من أيام الشتاء . كان صاحبنا يعيش فى أتون من الصراع بين الهوى والضلال .

كأنما كانت نفسيته المليئة بالعقد والخيالات والتعرضات تنتظر فاصلة « من » يرشدها ويوجهها . ومضى إلى ذلك الحفل . لم يكن يدرى أنها ليلة فى حياته . من تلك الليالى المهيبه التى تقبل على غير موعدأو ارتقاب .

وأهل « الشيخ » ولى الله وأشرق كالبدر . وخيل لصاحبنا أن الليل الذى كان قائما فى ضميره قد انجاب مرة واحدة ، تحت أضواء النهار الوضىء التى سلطها هذا الولى . .

ونزعت صورة الحكيم مخلفات عشر سنين من الرؤى والخيالات والأوهام! وسدد صاحبنا إليه الطرف ومضى يلتهمه فى حب وحنان .

قال صاحبنا لنفسه : لقد وجدت الشيخ الرائد ، وعاد إلى منزله ليقصى كتبه واوراقه وأوهامه أيضا ، لتحل محلهـا كتب الفقه والتصوف والبخارى وتفسير القرآن .

ومضى تحت أضواء تلك اللمحة الرقيقة التى قذفها الشيخ فى قلبه يفتح صفحة جديدة من حياته ..

واعتكف صاحبنا عن الناس وكره ما كان يحب من قبل ، كره ماضيه كله وأحرق كتاباته الوجدانيـة التى كان يبثها لواعج أشواقه ولوامع فـكره .

وانصرف عن الحب والجمال فى دنيا الناس . واتجه إلى الله .

ومضى يقطع الليل ذاكراً وقارئا ومصليا حتى مطلع الفجر ..

وأخذ يطوى أيامه صوما ، ولياليه تهجدا وسهراً ، يدعو الله ويذكره ويعزف عما أحل الله من متاع الحياة .

وسرعان ما اتيحت له الفرصة أن يذهب إلى أرض الحجاز . وأن يطوف بالبيت الحرام ويعكف فى مقام النبي يقرأ ويدعو .

وضاق به من كان يعرفه من الناس ، حتى أهله ، ورموه بالنفاق والمروق والجمود ، وعزف عن أوهام الناس ففصم ما كان بينه وبينهم ، وتحولت قلوبهم عنه .

ومضى صاحبنا إلى آخر الشوط .

كانت نفسه تتطلع إلى حياة جديدة عامرة بالمشاعر العليا ، جياشة بالشهادة ، تتراءى له صورة أولئك « الأقطاب » الذين وهبوا حياتهم لله فعاشوا على الزاد القليل والأمل المريض . .

ونفض صاحبنا عن نفسه ماضيه كله . ونسى آماله ومطامعه ، وعدها من الأوهام . .

لم يبق أحد لم يضق به . . حتى أقرب الناس إليه أنكروا ثوبه الجديد . كان يعزف عن الكلام أحيانا فيصوم عنه كما يصوم عن الطعام .

وحاول أن يفعل مثل ما فعل أقطاب الصوفية . حاول أن يصلى الفجر بوضوء العشاء . غير أن الحياة ، تلك الرحى الدائرة التى لا تقف لم تلبث أن جرفته من جديد .

- ١٢ -

أنها تجربة كبيرة ، تلك التى مر بها ، عاش عشر سنوات فى محيط الفلاحين والمزارعين والتجار ، أخلاق وطبائع معروضه ، فيها الكرامة والخداع ، والوفاء والغدر ، محاصيل القمح والقطن والذرة ، وزراعاتها ومبيعاتها ، كيف يجرى التعامل بين المزارعين والتجار ، ..

أيام طويلة يمتد فيها العمل منذ الصباح الباكر إلى المساء ، فترات من العام يضغط فيها العمل بعنف ، وأشد العمل ما يكون فى يوليو وأغسطس .. شهرى الراحة والاستجمام والسواحل والشواطىء ، أما الشتاء فهو أجازة عمل ، تقضى فى الشمس .. مع السمر والقراءه والأحاديث الفارغة ..

كان حريصا خلال هذه الفترة أن يحتفظ بالخلق ، وأن يقف بعيداً عن وسائل الأغراء والكسب الخاطف ، حيث تبدو المطامع من جانب الكبار والصغار .

كان خلقه مصدراً من مصادر الضيق للكثيرين .

ولكنه كان مثاليا يؤمن بالقيم ، يحافظ على أمانته ..

رجال كبار لهم مظهر رائع ، كان يلتقى بهم ، فإذا هم صغار النفوس ،

أنهم من ذوى الأطماع ، هناك صراع المرض والطلب ، حيث تبدو المطامع وتنكشف الرغبات ، هناك عرف الرجل النبيل الذى أنشأ المصرف الكبير ، وكيف تولت المؤامرات إنتزاعه من مكانه ، مناورات السياسة ، كان الرجل وفيا كريما ، يدفع مشروعاته إلى النجاح ، ويقاوم خصوم الاقتصاد المصرى ، وقد حارب المعركة سنوات طويلة بأيمان وثقة ، وعندما أحس أن بعض عملائه قد أكلتهم الازمة خفف عنهم آصار الفوائد ، وغطى أزمتهم ببوالص التأمين . كان أنسانا ، حتى فى اتجاهات الاقتصاد وميدان المال ، وكان هذا عيبه عند خصومه السياسيون عند ما أرادوا أقصائه عن العمل الذى عاش له بضعة عشر عاما .

كانت البلدة حيث يعمل بين المدينة والقرية هناك ، الطريق الزراعى الممتد منها إلى ترعه الابراهمية ، فإذا انتهى العمل خرج إلى الفضاء ، فى ذلك الطريق مع رفيق حياته (طه) محاولا أن ينسى المتاعب ، يتندران بالفكاهات والقصص ، للتغلب على الواقع المرر ، كانا يضيقان بالقرية وبالعمل نفسه ، يتطلعان إلى غد أحسن . ولم تكن يده تخلو من كتاب أو مجلة ، كان يعيش فى مناخ فكرى هو القاهرة بالرغم من حياته فى أعماق الريف .. حيث يعد نفسه لليوم الموعود !

وفى القرية سهرات حلوة ، ومع شخصيات مرموقة ، عند الباشا كانت أحاديث السياسة وعند البك كانت أحاديث الآدب ومطارحات الشعر .

ولكن أحاسيس الفقراء كانت فى أعماق نفسه ، رأى الاقطاع يصارع هؤلاء المستأجرين ويقتل عرقهم وجهدهم ويذهب به ..

كان أمثال الباشا إلهاوسيدا ، الجميع يعملون عنده ، أجور قليلة ، وديون ، وفقر ، بيوت تعيش على الفتات ، وفى قصره المهول ، ديوك رومية وطعام دسم يقدم بكميات وافرة لهؤلاء الضيوف الذين يقدمون من كل مكان ، ثم يحملون معهم الهدايا وهم عائدون ، كميات من الحمام الصغير المذبوح ، بعض الفاكهة ، أو أعواد قصب خد الجميل ، بهذه الأطعمة الفاخرة ، والهدايا كان الباشا يحقق رغباته وينفذ أمره .

كان المصرف يقاسى من مطامع الباشا ، محصوله يسلم بأقل كمية من الاحتياطى ، أقل من كل الناس ، ثم لا بد أن يحصل على أرق درجة وأعلى سعر ، أبراج الحمام التى يملكها تظل سماء شونة الغلال ، وتأكل بنهم عجيب ، فى الشروق الباكر وفى الغروب ، بضعة أطفال يجرون هنا وهناك ومعهم (الفرقلات) يدفعونها فى الهواء على نحو معروف يحدث فرقعة ، تخويفا للحمام ، الذى لم يعد يخاف ، فإذا اشتدت محاصرته جرى نحو البرج ثم عاد من منتصف الطريق ..

كان الباشا يتندر فى مجالسه بالحمام وهو يقدمه إلى الناس .. أن هداياه تسد كل الأفواه وحفلاته تغمض كل العيون ..

وزادت صاحبنا السنوات العشر خبرة بالناس والحياة ، ضاق بالأرقام والغلال ، ومعاملات التجار ، حتى عاد يحس أنه غريب عن هذه البيئة ، كانت رؤىء القاهرة والصحافة وصحبة « الأماجد » من حملة الأقلام فيها تملأ نفسه ..

دنياد التي تبدو صورتها الواضحة عام ١٦٣٢ فى أكثر من رؤيا ، وفاة حافظ ابراهيم الشاعر الذى ولد على ضفاف ديروط ، ووفاة شوقى أمير الشعر ، وصدور مجلة أبولو ، ثم صدور مجلة الرسالة . .

فى هذا المجال ولد قلمه ، وكتاباته ، ومشاعره مرتبطة بالأحداث ، لقد أحس بأنه لا بد أن يكتب عن حافظ فى عدد أبولو الخاص لأنه من بلده..

هذا القناطر الجميلة ، والده المهندس ابراهيم هو الذى بناها ، وعلى ضفاف النيل ، ولد حافظ فى ذهبية ! فهذا رباط بينه وبين الشاعر الشعبي الذى كان رائع الألقاء ، عذب البيان ، حاضر الفكاهة . .

وبلده ، إحدى البلاد التي شاركت فى ثورة ١٩١٩ بنصيب كبير وقدمت ضحاياها وشهدائها فلا بد أن تنطوى نفسه على مفاهيم الوطنية هذه التى لم تبرز بعد ، . . كان الأدب هو الطابع الأغلب، وعندما أصدرت جريدة الإنذار عددها الخاص فى يونيو ١٩٣٥ ذكرت اسمه مع عبدالسلام الشريف ورمزى نظيم وفايد العمروسى وتوفيق حبيب .

ثم هو يحاول أن يجمع محصول قراءاته فى مجلدات ، أحدها « دائرة معارف » بها كل شيء عن الفلك والآدب والهندسة والسيكولوجيا والرسم والتاريخ والفلسفة وعلوم والنحت والموسيقى والتصوف والشعر والجغرافيا ..

ثم هو يجمع الشعر والنثر والكلمات والحكم وهو مهتم لشعر الحب، وشعر الحكمة ، حتى بالمعرى والمتنبي وابن خلدون يقرأ مقدمته ، ثم هو يقرأ هوجو وفرويد وشوبنهور وله فى ذلك محصول ضخم .

وفى الوقت الذى كان يرجو أن يخرج من هذه الحلقة الضيقة ، كانوا يسخرون منه ، ويتلهفون على مكانه . . كيف يترك هذا المجنون ذلك الجاه وهذا العطاء والمال .

كان يريد أن يترك حياة الأرقام إلى حياة أقل من المتاعب النفسية ، شقى بالأرقام سنوات ، الليم الواحد يسهره ويسهره ليلا طويلا من أجل البحث عنه على الورق . .

كان حجر الخزينة لا يعطى إلا بأساليب مغرية ، لا بد من التضحية بشىء من الفائض التى تخرجه اهراء الجيوب ، لماذا يذهب هذا الفائض دون ان ينتفع به ، فليذهب مرة إلى جيوب تسعد به وتلبس وتستمتع !

ومن المصرف ذهب إلى أطراف القرى ، والتقى بالفلاحين فى كل مكان ، وراء المحاصيل وهى تنمو ، والجهود وهى تبذل من أجل استخراج طيبات الأرض ..

لعل هذا هو الذى جعله من بعد فى عالم الصحافة مدافعا عن حق الفلاح الأجير والعامل الفقير الذى رأه ومظالم الأقطاعيين تطحنه فى الريف . .

منذ مطالع شبابه وهو يسمع قصة ثورة ١٩١٩ ، كانت بعد مولده بعامين، كل ما في ديروط يعكس هذه الصورة، هذه بيوت الذين استشهدوا عرملها وهذه المدرسة مكان المحاكمة ، وما تزال قصة القطار الذى كان يركبه « بوب » وزميله ماثله ، عندما هاجموه ، وقطعوه ، وباعوه على عربات اليد، والقوا زميله فى مدخنه القطار ..

ومنذ يومها وديروط تحمل مكانا فى تاريخ الوطنية ، مربها « سعد » وهو يومها طفل يلهو ، ورأى القطار مغلفا بالسعف الأخضر ، والناس تزدحم حوله ، ثم مات سعد وكان يوما ما يزال يذكره ، ربما كان يوم يقظه المفاهيم عنده ، الصحف المجلله بالسواد ، حديث الناس، الحفل الكبير الذى اقيم بحديقة المسجد وألقيت فيه الكلمات والقصائد ..

ثم يبدو كل شيء حوله يذكره بالوطنية ، الصحف ومقالات العقاد ، وتوفيق دياب ، وعبد القادر حمزه ، صور الخلاف بين الوفد والأحرار ، تغير الحكومات والبرلمانات ، كل شيء يتغير ، العمد ، مشايخ الخفراء ، الجاه ينقل من هذا الدوار إلى ذلك الدوار ..

ولكنه مشغول عن كل هذا بالأدب والفكر ، ربما وقف أمام صندوق الانتخاب مجامله أو تحية ولكنه كان مشغولا بدنياه ..

ثم هو يولى اهتمامه للتاريخ الإسلامى العربى فيجمع منه محصولا ضخما من الفاطميين والسلاجقة والحروب الصليبية والمماليك والعرب والترك، ولعله كان مشغوفا بقوائم المكتبات التى تصدر فى القاهرة ، فما من مكتبة إلا أرسل إليها طالبا هذه القوائم المجانية ، وإذا هو يدرسها دراسة وافية ويعد قوائم لشراء كتب منها . . عندما يستطيع ذلك ! فإذا اضيف إلى هذا — فى ذلك الجو الاجتماعى الضيق — قراءات فى دائرة معارف فريد وجدى ومقدمة ابن خلدون واستماعات فى ندوة الدكتور أمين ، ولقاء فى بيت قاهرى حيث معلمته الأولى ، وكلمات موجهة من خاله ابراهيم ، بدا كيف كان تطلعه شديد إلى الصحافة والقاهرة ..

أما القاهرة فقد حجز عنها بعد هروبه الذى دبره ، إذن فليصدر مجلة أدبية فى الريف ، وليكتب إلى صاحب جريدة الإنذار يسأله عن شروط الترخيص لصحيفة ، فإذا علم أنها قاسية تتطلب تأمينا ومطبعة ، فكر فى طبع الكتب ، واحتال حتى طبع كتابا على ورق الأرز الرقيق .

وفى الريف التقى بالشيخ فخر الدين استاذ العقاد ، كان يلقاه سعيدا به وحفيا ، فقد أحبه الشيخ وأحس طموحه ولهب تطلعاته ، وعنى له مثل حظ صاحب العبقريات .

وفى صحف أسيوط ، والانذار ، والأخلاق . . والنادى والقاهرة . . كتب كثيرا ، حتى أتيح له أن يكتب فى البلاغ وكوكب الشرق وأبولو، غير أنه كان معجبا بنصف العامود الذى يكتبه اطفى جمعه ، والصاوى وزكى عبد القادر من بعد .. ولذلك كانت فرحة بالغة عندما نشرت له

جريدة الوادى نصف عامود فى صفحتها الأولى « جولات » فى منتصف الثلاثينات وبعد أن خلفها الدكتور طه حسين .

ثم اتيح له أن يكتب فى صحيفة ذات ماض وطنى عريق هى «الأفكار» كان يرأس تحريرها صديقه محمد محمود حمدان ، ويرافقه وديع ميخائيل موسى وسنيه زهير، وفى جريدة القاهرة التى تصدر فى طنطا كتب مع صديقه الهريدى ومحمد زكى وكان صاحبها المرحوم محمد صالح معجبا به ، كان صاحبنا يرسل له المقالات بالجملة، بلوكا كاملا به عشرة مقالات دفعه واحدة، و رأى أن صاحبه أن يرد له الجميل فارسل له « فونتفرافا » كان بالنسبة له هدية كبرى ..

وعن طريق الصحافة اهدى قلما مذهبا من الحبر ذا اللون الذهبى كان مصدر اعتزازه .

كان إنتاجه الأول غزيرا ، يدور كله حول العاطفة والمشاعر والتطلعات النفسية ، ولقد اتيح له أن ينشر فى جريدة الصباح ، مع عمالقتها إذ ذاك وبلغ به الغرور أن يطلب من صاحبها أن يفرد له عشر صفحات على الأقل كل أسبوع ! كانت لمحاته فى « جولات » استطلاعيه مرتبطه بالحياة

«احتجبت السماء أمس ، وتكاثفت فى صحيفتها غيوم سود، وتجلى بريق الفضه الناصعة التى تشرق لها النفس ، فتندفع المشاعر فى حلقات من السرور والحبور .

فإذا أمطرت السماء وبعثت رزازها أعطتنا نحن أصحاب الاقلام زاداً ، وملأت أرواحنا الشابه بالمرح ، فنندفع فى غمار هذا المطر المتكاثف

حاسرى الرءوس لنتمتع بشعور الفنان ، فإذا سخر منا أصدقائنا فاندعهم فى سخريتهم ، ...

« إنما يجب على المرأ أن يعيش متطلعا إلى المجد ، ولكن : عليه أن يحتفظ بعصمة نفسه من التبذل أو النزول عن الكرامة ...

* كنا نركب « السياره » وهى تجرى فى سرعة ، على يميننا مركب تجرى فى الابراهمية ، ناشره قلوعها ، يجرها رجلان ، الحبال فى أكتافهم ، وهم منحنون ، يبدو على محياهم التعب والارهاق ، وينظرون إلى راكبي السيارة فى حسره ، بعيون مفتوحة عميقة الأسى ...

* الطبالون والزمارون ، والطوائف ، من الرجال والنساء يملأون القريه ، ويطوفون مزغردين ، يلعبون بالعصى الغليظة ، ويؤلفون حلقات واسعة ، وجوههم مشرقة ، أما النساء فيغنين غناءاً شجيا، يهز الروح، أى روعة وأى سر ، إنه موسم الحج رعاه الله .

فى الريف ، فى ديروط ،ومن قرية إلى قرية إلى مدينه، فى حياة عمل بالمصرف امتدت خمسة عشرة سنة كاملة ، رأى الحياة بين سن السابعة عشرة والثلاثين . رآها فى صور متعددة ، الفقراء ، الفلاحون ، التجار ، أهل الريف بسذاجتهم ومكرهم فى نفس الوقت .

صورة مصطبة القاضى فى وسط ميدان ، ومكتب البريد فى وسط الساحة ، هما صورتان، رتبطان بصورة «دوار» ابراهيم جابر ،يقرأ فيه صديقه القرآن فى أمسيات رمضان. ويشترك فى العمل من أجل مفاهيم الفكر والأدب ، ويرفع رفعت المهندس المؤمن لافتة الرابطة، الشيخ قطب بطلعته المهيبة وإيمانه الراسخ يخطب فى المسجد يوم الجمعة فيهز رجال الاقطاع والحكام الظلمة ويبدد أمنهم ، لطالما كنا ننتظره انشهد على بعض الوجوه صدى صرخاته وأثر كلماته المدوية ، وصاحبنا بين ذلك يقرأ ويكتب ويراسل الصحف الإقليمية حتى ما يدع صحيفة لا يكتب فيها ، فى سن السابعة عشرة ، اعترضته عقبة الانقطاع عن المدرسة ، حين هوت أسعار القطن ، وخسر والده تجارته ولكنه واصل الدرس لم يتوقف وربما حاول السفر إلى أوربا ، دون مال ، واثقا من أنه يستطيع أن يشق طريقه ، ثم يتحول إلى أمل قريب هو أن يسافر إلى القاهرة ليعمل فى الصحيفة التى كتب فيها طويلا . . وأغراه صاحبها .

وبدأ يدرس فى مدارس المساء ليستكمل تعليمه ويحصل على الدبلوم ، ويتصل بالمراسلة بجامعات فى لندن فترسل له مجلداتها ، ويربط بين عمله فى المصرف ودراسات التجارة والمحاسبة والمصارف ، وفى الساعة السابعة صباحا يرى وهو يقرأ ماشيا فى ساحة البنك ، بجوار الحائط العالى المواجه للحديقة الصغيرة .. بين خطا الحمير والجمال وهى تخطو من البوابة الواسعة تحمل الفول والقمح والذرة على مدى فصول السنة وتثير الغبار والأصوات المزعجة ، .. هناك ، هناك فى هذه الشونة الواسعة العريضة التى تعلو حدودها شرفات قصر ، تبدو منه صور حلوة وتسمع أصوات رقيقة ، ضحكات وموسيقى ، ومن بعدها الحقول ، وأبراج الحمام . والطبيب الفونس من شرفته يضبط ساعته حينما يراه ، وقصر البك على اليمين ، يسجل للشيخ محمد رفعت قراءاته ، والقهوة فى صدر الميدان تسمع منها أصوات حجارة الطاولة وهى تنتقل ..

وهو يقرأ ويكتب ، يلقى زكى مبارك فيرده عن الأدب فيندفع إلى دراسات المحاسبة ويوغل فيها ويأتمنه مدير البنك على كل شىء ويدع له كل عمل ، فتجرى فى يده ألوف الجنيهات ويسهر فى أعمال المحاسبات فإذا عاد إلى منزله فى المساء كان عليه أن يقرأ ، أو يكتب هونا من الليل ، أو يسعى فى ذلك الطريق الطويل ..

أنهما صورتان ، لاقريتان ، كلاهما الكبرى والصغرى ، بعيدة غربا عن الإبراهيمية ، وعن خط القطار .

وفى الغروب تضيق النفس وتسعى لكى ترى الماء أو القطار ، وما من مؤلف جديد فى القاهرة إلا وهو بين يديه بعد قليل مهما كلفه ، والصحف ،

والمجلات ، كذلك، صوت بائع الصحف يخفق له قلبه، لأنه يحمل مجلة جديدة ثم هو يحاول أن يضع مذهبا فى الفكر ، يطلق عليه مذهب « الرجل الدينى المدنى » .. يزاوج فيه بين الروح والمادة والشرق والغرب .

فى الصباح الباكر يصحو ، ويذهب فى الطريق الطويل ، حيث الندى ما يزال يغمر أوراق الزرع ، وعربات الرش ما تزال تملأ فناطيسها ، وفى المساء هو ذاهب هناك حيث يجلس الخفراء حول مواقد النار يتدفئون، أو حيث حلق الذكر وسهرات السامر ، جلسات عند وابور المياه فيها تشوى الذره وتتعالى الضحكات ، .. وفى رمضان سهرات فى بيوت مختلفة ، فيها حديث وفكاهه أو ، جلسات هناك فى الحقول حول أجران الوسيه ، النورج يدور ، والليل يصفو ، والصوت يذهب مع الهواء فيثير فى النفس رهبة وتهويما وبين هذه الصور ، يمضى ثلاثة على الطريق ، يغنون لسيد درويش ، أو يذكررن كلمة لهذا الحكيم أو فكاهه .. وثلاثتهم يذكرون « القاهرة » ويتطلعون إليها ..

وفى القرية الكبرى : طريق طويل ولكنه جميل ، تحف به القصور ، ويفضي إلى مصطبة العزاء ، وأشجار السرو العالية ، وعلى الضفة الأخرى للابراهمية يبدو ضريح الشيخ ، بلونه الأبيض ..

* * *

ثلاث أضواء من ثلاث مقالات تبدو اليوم بعد ثلاثين عاما واضحا فى أعماق النفس ؛ مقال الدكتور هيكل « النور الجديد : أيان يكون

مطلعه » و « المثل الأعلى » فصل من فى كتاب علم الأخلاق و« الشجاعة الأدبية » لأمين واصف فى مجلة الهلال ..

هى قراءات غير قراءات الصبا الباكر على قناطر ديروط ، تلك كانت قراءات المنفلوطى وإحزانه وعبراته ...

أنها تطلعات جديدة تريد أن ترتبط بالحياه الفكرية ، وتعيش فى مستواها ، كتابات كثيرة للعقاد وسلامه موسى وطه حسين وهيكل ، وصور كثيرة .

والحب إلى جوار الآدب ، والتطلع الطامح إلى المجد ..

وفى كل مكان يسأل عن الكتب فهو « يكاد يوغر صدر عارفيه من استعارة الكتب ، لا يكتفى بما يقع تحت يده ، وإنما قد يزورك فى البيت فيتوجه أول ما يتوجه إلى مكتبتك يفتش فيها ، ويبحث كما يبحث الفأر الجائع .. عن فتات الخبز ، يفعل ذلك دون استئذان متكلا على حسن صداقته لك ، هذا الإديب قد امتزج الآدب بدمه فهو لا يعرف إلا ما يرد على نفسه من جولات فكرية ، ولا يبالى ملامة الصديق لإنجذابه الأدبى ونسيانه كل ما فى الوجود غير الكتب .

أما كونه كاتبا فهو لا يكاد يمضى عليه يوم بل ساعة فراغ ، إلا ويستوحى القلم ، ويستلهم الخيال ، ويغوص بفكره فى شتى المعانى ، هذه صورته فى سنوات الريف كما رسمها صديقه وصفيه (الهريدى) . . « لقد عاشرت

أدباء كثيرين . فما عرفت منهم أحدا يتخذ من الأدب محرابا كما يتخذه هو ، فأنت إذا عاشرته أو قرأت له وجدته كعابد قام إلى الصلاة فتجرد عن الدنيا وماديانها وراح يندمج فى نور عميق وضاء ، يمكنك أن تبعد هذا الأديب عن المال والجاه والمنصب وحب الأهل ، ولكنك لا تستطيع أن تبعده عن الأدب فهو فنان بطبعه ، تسأله لمن يكتب ويؤمن فى الكتابة حتى لا يخلو له يوم من كتابة فصل أو مقالة فيقول : أكتب لنفسى ، وقد تزوره فى عمله فتعجب كيف أن هذا الجسم المريض لا يذبل أمام أكداس الورق التى عصرت فيها الأفكار عصراً من دمه وروحه وشبابه وحياته ، وهو منجذب فى الكتابة يطرق المواضيع ويكتب فى كل باب ، وهو يجيد الكتابة فى الوجدانيات إلى حد بعيد ، ويرجع هذا إلى أن الكاتب عنده كثير من الأمانى والآمال المكبوتة يريد أن يحققها دفعة واحدة ، فهو يريد أن يكون من سكان قصور القاهرة ، ينعم بالمجد والشهرة الأدبية ، وهو يريد أن يكون صاحب مؤلفات أدبية فى سوق الأدب ، ويريد أن يترك الفقر الذى يبتلى به أغلب الأدباء . . »

حقا ، إنه يكتب صرخات مدوية .

أريد أن أتحرر . . هذه حياة الريف تصلينا كل يوم عذابا . . وتزيدنا كل يوم شقاءا . . نطلب الخلاص منها والتحرر . . والقلب أبدا متمرد يذكر أشواقه . .   الخ

وفى أعماق الريف كان فكره فى القاهرة ..

محاضرة أميل زيدان عن الصحافة ، يطلبها منه فيرسل له الهلال (مارس ١٩٣١) وفى نفس الوقت يتاح له أن يزور مدينة « هرمو بوليس » حيث يرى عظمة الفراعنة ، ويكتب إلى صاحب مجلة الراديو ينعى عليه كتاباته فى الأدب المكشوف ويحاول أن يكتب « الزجل » فيرسل إليه خاله « ابرهيم » ينهاه عنه ويوجهه إلى الكتابة الأدبية ..

فهو فى أعماق الريف يعيش بالفكر فى القاهرة ، يكتب إلى داود بركات وهيكل وعبد القادر حمزة وكل كتاب القاهرة فلا يجيبه أحد ، إلا كاتب واحد هو الدكتور زكى مبارك ..

* * *

كلمات المثـــل الأعلى ، الشجاعة الأدبية ، النور الجديد : أيان يكون مطلعه تظل حية فى أعماقه مؤثرة بعيدة الأثر فى نفسه وما تزال كلمة (رأس الحكمة مخافة الله) أول لوحة رآها فى بيتهم ، تملأ نفسه ..

ودفعه الحب فى طريق المجد ، كان يريد أن يكون شيئا من أجل تحقيق أمله ، وبدأ يتحرك ، كان لا يتوقف أبدا عن العمل ، عشرات من التيارات والأفكار والمذاهب والآراء ..

وقليل من المراجع والأبحاث والكتب ..

وليس هناك « أستاذ » يوجه أو يرشد ...

ولذلك فهو طامة مندفع وراء الرأى الحر الجرىء، وصرة منطو وراء الرأى الجامد ..

ثم هو متطلع إلى كتابه موسوعة يجمع فيها قراءاته ومطالعاته ثم هو حفى بالـكتابة اليومية السريعة .

يقرأ السياسة الأسبوعية وملاحقها ، ثم تصدر الرسالة فيتابعها ، ويرى فيها نافذة جديدة فيكتب لمحررها:

ماذا يمنع الأديب الذى يعيش فى الريف أن يجد أمامه المجال للظهور حتى يملأ روحه القوة والحق والجمال فيمضى فى طريقه مخلصا لهوايته ، ماذا يمنع أن نـكتب وتنشر لنا الرسالة ثمرات أقلامنا ، دون أن تعبأ بالأسماء ودون أن تضع أمامها تلك القاعدة القاسية: أنها تعرف الأسماء والوجوه ، لماذا لاينال أولئك الذين قهرتهم الحياة بالعيش فى الريف والقرية حظوظهم وحقوقهم فى الـكتابة والتبريز . .

لابد أن ترفع الرسالة مشعل النور فى وجه هذا الليل البهيم أمام أدباء الريف ، أنهم مثقفون ، جديرون بالظهور ، وأن فى الريف أدباء يميلون إلى الحق والبراءة فى النزعة والصدق فى القصد لا يتوفر كثيراً فى أقلام القاهرة ، وأنها عقليات تنتج فى كثير من الاحيان ماهو أغزر مادة ، وأجمل أثراً .

لماذا يظل أدبنا حبيس الـكراسات ولماذا لا يصافح النور . .

إلى متى تظل كتاباتنا فى أطواء النسيان . .

لا يمـكن أن تضيم الطبقة المثقفة فى الريف ، ولابد أن تعيش ، ولا بد أن تظهر قوية مناضلة ، والا فأن الأديب فى مصر قد قضى على نماذج طيبة من المثقفين .

أنشر هذا ياسيدى غير مأمور لوجه الحق . .

— ١٥ —

وأخيرا ...

تحققت الأمنية الكبرى .

وجاء اليوم الذى انتظره خمسة عشر عاما ..

كان القطار يجرى شمالا صوب القاهرة . وصاحبنا ضيق النفس لبطء القطار . وطول الطريق . ولكنه كان إلى ذلك مبتهجا فرحا . إن الأقدار قد أتاحت له فرصة العمل فى القاهرة التى أحبها وعاش يحلم بها . صابراً قلقا ، لا يمل الترقب ، ولا يفل من عزمه وأمله مرور الأيام ، ولا قيام العقبات .

كان القطار الميمم نحو القاهرة ، يضيق بفرحة صاحبنا المسافر الذى يرى أن حلم الحياة وأملها البعيد قد أصبح وشيك الوقوع .

وهو فى مجلسه ذاك يستعرض الماضى كله ويرقب شيئا واحداً وأملا واحداً هو أن يعيش عمره فى هذه المدينة الحافلة الضخمة .

والقطار يمضى فى طريقه لا يقف إلا لماما . والشمس تنحدر نحو الغروب ، والليل يقبل . وهو بين آن وآن يقف ثمة أو يتنقل بين نافذة وأخرى كلما ضاق بالساعات والمحطات .

لقد ودع صاحبنا أهله وداعا سريعا . وقال لهم أنها رحلة إلى القاهرة فى أمر ما : وكان قد كتم أمر ذلك الخطاب الذى تلقاه صباح ذلك اليوم يدعوه إلى العمل الجديد ، العمل الذى أحبه وظل يرقبه السنوات الطوال .

كانت أيامه ضيقة بالواقع فسيحة بأمله . كان يرى أن مجاله لن يكون فى الريف ، أيرضى هو أن يظل واحداً فى العدد المجمل ، أو نفرا فى القطيع العام ؛ هيهات ..

إنه يرى نفسه « شيئا » يستطيع أن يصنع لامته ولوطنه فى مجال الفكر أمرا .

لقد نشأ عاشقا للأدب والفكر : باحثا متطلعا . ثقف نفسه بنفسه، وعكف على الدرس والمراجعة ، يكتب الفصول الطوال والقصار .

كان مطمعه الذى يملأ عليه نفسه من جميع أقطارها ويمتد مع الأيام هو : القاهرة حيث يجد مجال الدرس والمراجعة ، فلما جاءت الفرصة المارقة انتهزها دون أن ينظر بعيدا . ولم يكن فى مقدوره أن يقرأ الغيب أو ماوراء اليوم واللحظة . ولذلك لم يتردد : ومضى يودع أهله وركب القطار .

لا يعتقد أن لحظة من لحظات السعادة مرت بحياته منذ مطالع الصبا ، أو بالأحرى خلال السنين العشر التى قضاها مربوطا إلى سارية الأدب والفكر تساوى هذه اللحظة .

كان مؤمنا بأنه لابد أن يقدم إلى الناس والمجتمع عملا يرد الحياة عن بعض أخطائها ؛ ويرتفع بها عن أهوائها .

وليست لحظة مرت به أحلى وأسعد من هذه التى أتاحت له أن يرى المدينة بعد أن ضاق بالريف .

ومضى به التأمل والقطار فى طريقه إلى وطنه الروحى ..

القطار ماض إلى القاهرة ، وصاحبنا ماض فى أوهامه يستعرض أيامه وأحلامه .

لقد تجمعت فى القاهرة جذور الضياء ، ومنابع الثقافة . وكل ما يرتبط بالفكر والسياسة والفن والاجتماع .

كان صاحبنا يطمع فى أن يرضى ذات نفسه بحب كبير ، وحياة رفيعة المستوى ، يأخذ حظه منها فى الصحافة والكتابة والإذاعة ، ويدع هذا الريف الذى يطمر أقدار الباحثين والكاتبين . ويقضى على جهود المثقفين ويدعهم مغمورين ، لا يسمع بهم أحـــد . ولا تستعلن آراؤهم ولا مذاهبهم .

ولذلك فقد تحمس لهذه الرحلة حماسة الريفى الطاهر الأهاب الذى لا يعرف المكر ولا اللؤم ولا المواربة ولا المصانعة .

* * *

ولما وصل إلى القاهرة اندمج فيها اندماجا سريعا ، ومضى يشق طريقه فى حماسة وقوة . وقد أمضى من حياته الجديدة ثلاث أعوام يكتب ويقرأ وينشىء الفصول والكتب بعد أن قال له الرجل الملهم : أذع ثم أذع ثم أذع .. وذلك قبل أن يدخل السجن متهما بمقاومة ذلك العهد

الأسود الذى كانت ترزح فيه البلاد عام ١٩٤٨ ، هنالك صرف من تلك الحياة حيث وقف يفكر طويلا .

ترى هل حياة الريف أجدى من حياة الصراع والنضال ..

وهل المجد إلا ذوب آلام ودموع ومتاعب .. أن مظهره لفاتن براق ، ولكن له ثمنه ..

ثمنه الذى يدفع من حساب الأعصاب والحياة .

ومع ذلك فقد كان انتقال صاحبنا إلى القاهرة أعظم حادث فى حياته ! أنه آمن بأن القاهرة هى باب المجد .

دخل القاهرة غارقا فى تصوفه وأفكاره وروحانيته ، غير أن الحياة لم تلبث أن جددت روحه وزادته قوة وحيوية وأزاحت عن نفسه أوهام ووساوس ، وأيقظت فى نفسه معالم كامنة منطوية ، وبدأ خلقا جديدا : روح من الخلق والإيمان والتجاوب مع الحياة .

وسرعان ما انجابت عنه روح الصوفية المغرقة ، ونضج للفهم ، وغلبه الصراع السياسى .

كان كل يوم يمر به يزيده قوة على العمل الفكرى الذى وجه نفسه إليه وقد لفت النظر سريعا بإنتاجه الضخم .. وهو يفيض حماسة وبراعة ، وقال الذين عرفوه واتصلوا به : كيف اتيح له الوقت الذى يمكنه من كتابة كل هذه الآثار ..

وعند ما أصدر كتابة (اخرجوا من بلادنا) أثار جوا من المحاكمة والتحقيق والاتهام ووقف ذلك المحامي النبيل إلى جواره .. وقال له أن كل كلمة في كتابك حق وإنني على استعداد للدفاع عنك .

وهنا لمع إسم صاحبنا في هذا المحيط الضخم لمعانا خاطفا .. ومضى يصدر كتبه وينشيء فصوله .

وتساءل الناس عنه ، جاءوا ليقابلوا هذا الكاتب المصقول البيان ، ودهشوا عند ما وجدوه شابا لم يتجاوز الثلاثين ، وقد ظنوا أنه شيخ قد ابيض عارضاه ..

كان كتابه قنبلة هزت خصوم مصر ، جمعه الجنود البريطانيون من السوق وصودر في عنف فبلغ ثمن النسخة منه جنيها ..

كان أروع مظاهره « غلافه » : صوره جندى مصرى يقذف بالإنجليز إلى البحر ، من أول أعمال للفنان الصديق الشيخ عبد الجيدوانى الذى بهر الناس بعد ذلك بآثاره الرائعة ، ومضى صاحبنا دائب القراءة والبحث والكتابه .

كان يمضى لياليه ينتج ويعمل وقد شغل عن كل شيء ، لم يتصل بالناس لم يتعرف إلى أحد ، لم يكون صداقات وظل محظوراً في محيط الضيق المحدود .

وكان كل يوم يكشف في عاموده (يجب أن تعلم) سراً من أسرار

المؤامرة الحزبية الكبيرة التى كانت تخدع الناس، اتسمت كتاباته بالحرارة التى تملأ قلوب الشباب بالنور والنار ..

ووجد ميدانا خصبا للعمل والإنتاج .

وكانت السنوات العشر فى الريف قد مدت أسلوبه قوة ، وروحه طلاقة ، وخيل إليه أنه قد بلغ الغاية التى تطلع إليها أو كاد .

وفجأة بغتته الأحداث وأخذ إلى السجن على غير انتظار وأمضى به ثلاثة عشر شهراً .

وكان عليه بعد أن خرج منه أن يبدأ من جديد ..

- ١٦ -

كانت هدفه عندما وصل إلى القاهرة أن يصاول فى معركة الفكر والصحافة بعنف . وأن يهاجم الحزبية والسياسة الملتويه، وأن ينقد الأوضاع المضطربة نقدا مراً . كان قلمه جريئا غاية الجرأه ، لا يعبأ بالقيود الموضوعة ولا يخشى أحداً .

وكان هجومه على الحزبية والاستعمار لا يدع له صديقا . كان يغضب الجميع . وكان كتابه « اخرجوا من بلادنا » قمة هذا الهجوم فهو كما صدره بالخط الكبير على صدره « دعوة إلى مجاهدة الإنجليز واذنابهم » . وقد تحدث فيه عن آثام اسرة محمد على ومظالم إسماعيل وتوفيق وانحرافات السياسة التى تولت الحكم فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ وهى مدرسة سعد زغلول وماصدر من الوفد من أحزاب وزعامات .

صدر الكتاب عام ١٩٤٧ إبان حكم اسماعيل صدقى فاحدث ضجة كبرى ، فقد كان الشيخ وافى الرسام الأزهرى قد صنع هذا الغلاف الذى هز الإنجليز ، صورة مصرى يلقى بجحافلهم فى البحر ، مما دفعهم فى جنون إلى مصادرته من باعه الصحف فى العتبة وغيرها وسرعان ماطلعت الأهرام فى اليوم التالى تقول أن النيابة قد ألقت القبض على مؤلف

« اخرجوا من بلادنا » لأنه حرض على قلب نظام الحكم فى البلاد .

كان فى الطريق إلى عمله فى الوقت الذى كان زملاؤه يظنون أنه وصل إلى السجن . وفتشت المطبعة التى طبع فيها الكتاب للصادر ومكاتب التوزيع .

ولكن النيابة لم تلق القبض عليه توا ، ومرت فترة تزيد على شهر ، وبينما كان يغادر منزله ذات الصباح وجد كان هناك من ينتظره على الباب ليدعوه إلى النيابة .

إنها مفاجئة ، فقد كان قد أنسى القصة تحت ضغط الأحداث ، وتذكر ذلك المحامى النبيل الذى سعى يوم صدور كتابه ، فتلقاه لقاءاً كريماً حماسيا ، وقال له : إن كل ما فى كتابك حق وانى مستعد للدفاع عنك ولكن أين هو الآن ، لا ، بل أين نسخة من كتابه . وغضبت النيابة لأنهم أرسلوه مخفوراً ، وطلبت إليه أن يعود بعد أسبوع ، فلما عاد يومها كان معه محام متطوع ، أخذ يسأله وهما يصعدان الدرج عما يتوقع أن يسأل عنه وكانا قد أمضيا ليلة كاملة يراجعان نصوص الكتاب .

وما كادا يدخلان غرفة النيابة حتى فوجئا بشىء غريب .

جلس وكيل النيابة يفتح المحضر ويسأل عن اسمه واسم كتابه الذى كان أمامه بغلافه الأزرق ، ولاحظ وهو يقلب الكتاب أن هناك سطوراً قد وضعت تحتها خطوط حمراء وسطور تحتها خطوط زرقاء ودهش لهذا ولم يعرف السر فيه ثم يتبين فيما بعد أن الخطوط الحمراء من وضع الذين

ألقوا القبض عليه وأن الخطوط الزرقاء وضعها المحقق .

وفاجأه المحقق بالسؤال الأول ، فوقف قليلا يحاول أن يستجمع معلوماته وبدت عليه الدهشة عند قال المحقق : هل تسمح لى أن أجيب عنك !

وفتح صفحات من الكتاب وضع تحتها الخطوط الزرقاء ، وقال ان ما قلته فى صفحه كذا يفسره ما قلت فى صفحة كذا ، وفسر الاتهام الموجه بالخطوط الحمراء بإجابة تنقض الاتهام وتهدمه من اساسه وفى السؤال الثانى حدث نفس الشيء : وجه إليه السؤال ثم أجاب عنه وهكذا .

وخرج دهشا من هذا العمل ، ولكنى تبين فيا بعد أنها مجموعة من الشباب قد هزتهم الوطنية فوقفوا فى صف الكتاب الذين هاجموا الاستعمار والقصر والاحزاب ولكن الذين قدموه للمحاكمة لم يكفهم هذا ، فاسروها فى أنفسهم حتى جاءت موجة من الاعتقالات فكان فى مقدمتها ولم يكن قد توقف بعد صدور كتابه (اخرجوا من بلادنا) بل تابعه بأربعة أجزاء كشف فيها أسرار الاحزاب وفضائحها .

ولم يقف عن هذا الحد ، بل أخذ يكشف حقائق توكيل الوفد المصرى والمواقف الهامة التى كانت الحزبية السياسية تدعى أنها من أعمال الوطنية . ومن اجل كتابة هذه اليوميات كان يذهب إلى دار الكتب يوميا يراجع الصحف وينقل النصوص ، وقالت جريدة أخبار اليوم تعليقا

على هذه اليوميات : أن الحزبية السياسية تهاجم لأول مرة بالوثائق المدعمة بالأرقام والنصوص .

وكان هذا من وقود ثورة الشباب العارمة عام ٤٧ وعام ٤٨ التى هتف فيها لأول مرة بسقوط الحزبية والملكية، ودوى لأول مرة الهتاف باسم (الجلاء) بعد أن اختفت هذه الكلمة تماما منذ برزت كلمة (الاستقلال) الغامضة ! وكان هذا تطوراً ضخما خطيراً فى حياتنا مهد للثورة وأعد النفوس لليقظة .

ومرت الأيام ولكنه لم ينم عن غايته ، بل كان ينتهز كل فرصة ليوقد المشاعر الوطنية ويغذيها : أحداث ضرب الاسكندرية ودنشواى وهزيمة فريزر فى رشيد وغيرها . . ، كل هذا كتب عنه صفحات نارية .

كان هجومه على الحزبية إنما يقوم على أساس أنها المدرسة السياسية الكبرى التى قادها سعد زغلول عندما وقع الشعب التوكيل للوفد المصرى ثم وقع الخلاف بين أفرادها فانقسموا إلى أحزاب تتضارب وتتصارع وكانت المظاهرات الصاخبة التى تحرق دور الصحف وترميها بالحجارة إحدى وسائلها ، وقد طلب إلى سعد باشا ان يوقف مظاهرات أعوانه فقال : كيف تطلبون منى حماية خصومى من انصارى !

وعلى هذا النسق من الاضطراب الفكرى سارت الحياة السياسية المصرية فى الحزب والشارع والوزارة والبرلمان . ولذلك أعلن تشاؤمه فى كل سطر وكراهيته للنظام البرلمانى الذى كان قائما اذ ذاك مما دعا استاذه عبد الرحمن الرافعى إلى أن يراجعه فى ذلك ويضيق به أشد الضيق .

كان مؤمنا بأن النظام الحزبى على النسق الذى رسمته مدرسة سعد زغلول السياسية نظام فاشل يجب أن ينتهى ، وقد دفعه هذا إلى أن يذكر فريداً ومصطفى كامل والحزب الوطنى بالتقدير وإن كان يكره الحزبية جملة .

ويتصل بهذا ما حدث قبل أن يذهب إلى القاهرة ويعمل بالصحافة عندما قاد مظاهرة عام ١٩٤٥ فى ابو تيج وكان يهتف بالجلاء ويدعو على المنابر فى المساجد إلى إخراج الإنجليز ، يومها ، لقيه رجل عالم كبير كان عضوا فى هيئة كبار العلماء وقال له : يابنى انتم تخدعون انفسكم حين تتصوروا أنه فى إمكانهم اخراج الانجليز ، أنه لاسبيل إلى ذلك واستشهد يقول الشاعر حافظ إبراهيم : من أقتران يوم الجلاء ويوم الحشر ولكن صاحبنا كان يؤمن بأن القضاء على الحزبية سيحقق هذا الجلاء وكان هذا إذا ذاك من الخيال أيضا فلم يكن هناك سبيل للقضاء على الحزبية الايثورة تغير كل القيم والمفاهيم وكانت إذ ذاك إرهاصاتها قدبدت قريبة على الأفق .

وعارضه الاستاذ الرافعى فى اتجاهه الذى وضع على أساسه مؤلفاته « اخرجوا من بلادنا — مناورات السياسة — صفحات سوداء من تاريخ الأحزاب — بين لاظوغلى وقصر الدوبارة » وقال : فى كتابة التاريخ يجب أن يكون المؤرخ مجرداً من الاثاره وان ينقل النصوص ويقدمها

ويعلق عليها ، ورفض رأيه فى أن يتخذ من التاريخ عجينة طيعة يثير بها العواطف ويهز بها مشاعر الشباب .. وقال أن هذا ليس فى نظره من وظيفة المؤرخ : بل من وظيفة الكاتب الوطنى

وقال له المرحوم محمود لبيب أن ماذكره من فضائح المدرسة السياسية التى حكمت مصر بعد عام ١٩٢٢ قليل من كثير وان هناك من الأسرار مايندى له الجبين .

- ١٧ -

ينظر إليه اليوم بعد خمسة عشر عاما . فيراه حدثا من اضخم الأحداث فى حياته . لعله كان بعيد الأثر فى واقعة كله . أعطاه الحذر والحرص ومراجعه النفس فى الأمر مرة ومره ..

كان « الفكر » هو الذى دفعة إلى السجن، الفكر الجرىء الذى كان يهدم العهد الماضى الذى نخره السوس . . وأوشكت شمسه على الغروب ، كشف الستار عن الحزبيه فى مؤلفات خمسة اثارت قلوب أصحاب الاحزاب وحكام البلد ، ولم يقف عند الحزبية وحدها ، فقد هاجم سلطات اسرة محمد على من الاساس وكشف عن دورها فى حماية الاستبداد والاقطاع ، فكان لابد من السجن وراء الاسوار فى صورة الاعتقال .

كانت تجربة مريرة ولكنها رائعه ، كان لابد أن يمر بها الكاتب ليضيف إلى خبرته مزيدا من التجربة عن هذا الحى المجهول الذى لم يكن يعرفه فى الماضى إلا الذين يقفون فى وجه الظلم ويدعون إلى العدل والحق .

انه السجن الذى يدخله صاحبه لأنه قاوم الظلم السياسى الواقع على وطنه ، وقد كشف دخائل المدرسة السياسيه وفضح اسرارها واوضح للناس الحقائق التى أخفاها الزمن هو عمل من أعمال الشرف ولا شك .

كان هناك كتاب كثيرون يسيرون فى الركب يؤ ـكتبون فى مدح الملك وفى مدح الاحزاب ويكسبون من وراء ذلك المناصب والجاه والمال ولـكنهم كانوا فى نظر الشعب خونه ، أحتقرهم الناس ، وأضافوهم إلى قائمة العملاء .

ولـكنه عندما وقف وراء الاسوار أحس انه قد دفع نفسه إلى عمل خطير دون يحسب حساب الحرية ، التى هى اغلى من كل شىء ، كان الاعتقال غير محدود ؛ فلم يـكن يعرف فى أى يوم يـكون الخروج وردد شعر الأول :

دخلنا باليقين بلا امتراء وكل الشك فى أمر الخروج

وفى السجن يحس الإنسان بالوحدة ، وتنزاح عن النفس مظاهر الغرور ، وتتم هناك مراجعة كاملة للاعمال ، فقد مضى ينظر فى أمره ، لقد تطلع أى القاهرة عشر سنين أو يزيد ، فلما أن بلغها اندفع يـكتب فى عنف ويهاجم فى قوه وهو يظن أن للحق مقالا .

كان يظن أن القيم تستطيع أن تجد مجالها وأن الـكاتب الحر الذى عاش فى الريف وكون ارائه على أساس العمل لتحطيم هذه المغالطات يستطيع أن يعيش فى جو قائم على الإيمان بالمبادىء والقيم وحدها دون الحاجة إلى النفاق والخداع والمناورات ولـكن السجن جمله يتشكك كثيرا فى هذا ، مرت عليه لحظات يأس استبعد فيها قرب اطوع الفجر ، وظن أن الرجعية تتجمع وتقوى وتستعيد كيانها من جديد حتى لا يقف امامها رجل حر .

ومر بخاطره كثيرا أن يعود إلى الريف ، وأن يرتد إلى عمله بين الأرقام والاضابير .

غير أنه بعد أن تأمل فى حياة ما خلف الأسوار مضى يتفهم حقيقة مشاعره وجوهر نفسه وأيقن أن مجال عمله الأصيل هو «الفكر» وأن ميدان رسالته هو «القلم» وحده فى مجال تجديد الضمير العربى الإسلامى وأحياء إمجاد الأمة وكشف صفحات تراثها المضىء المشرق وإبراز حياة أعلامها الذين لم ينصفهم جيلهم .

ومن ثم عاد إلى ميدان الفكر يصحح الاوضاع فيه ويجدد تراثنا العربى القديم ويكشف كنوزه وذخائره ، ويتحدث عن القيم ذاتها ويذكر الناس بالانتصارات العظيمة إلى حققها العرب والمسلمون فى تاريخنا الطويل يوم قاومنا المغيرين وهزمنا المعتدين وحطمنا القيود .

وكذلك كشف أوهام السياسه وماترديناا فيه من اندفاع وراء بريق الجرى فى مجرى الحضارة الغربية التى حاولت أن تعزلنا عن تراثنا ، وقد صبغت نظرتنا إليه بالاحتقار والشك ، وظن أنه يستطيع أن يعمل كثيرا فى هذا الميدان .

وبهره فى تاريخنا المصرى العربى الإسلامى اعلاما وشخصيات هى نماذج فى البطولة والعظمه لم يحظ تاريخ الغرب فى عصوره كلها يمثل هذا العدد الضخم ولا يمثل هذه المواقف الجبارة والبطولات الخارقة .

ولذلك حول أن يوجه وسائله إلى هذا الهدف الضخم إيمانا منه بأنه عمل مصيرى يحقق بروز شخصية الأمة وقيام قاعدتها الأساسية التى

تستطيع ان تبنى عليها النهضة ومن هذا الطريق يمكن أن يصل بالامة إلى المعانى العليا التى تنشىء الامم وتبنى الشعوب وتدفعها فى طريق القوة والحياة ·

كذلك كان تفكيره خلال فترة السجن ؛ فقد كان حبه لصناعة الفكر المتصل بالصحافه كبيراً ولم يكن من اليسير أن يتخلى عنه أو ينصرف إلى مجال آخر ·

* * *

وفى السجن اكتسب خبرة عريضه ·

فقد التقى بعشرات من المحامين والأطباء والمهندسين والعلماء والخبراء لقاءاً حرا طليقا لا تقيده قيود ، لقاء الصباح والظهر والمساء، كانت النفس فيه راغبة إلى ان تمتص تجربتها واحداثها وتاريخها ؛ ومن ثم استفاد كثيرا من خبرات الناس ، واضاف إلى معلوماته الصحفيه محصولا ما كان يستطيع أن يحصل عليه فى عشرات السنين ، كان يخرج إلى البحر الأحمر مع بعض الزملاء فيغرقون اقدامهم فيه وتنكشف اسماكه وحيواناته ومواقعه فيدرس مع بعض خبراء البحر هذه الحياة الضخمة التى تجرى تحت الماء ، كان يرقب المد والجزر ويشاهد الاحجار والاصداف ومختلف وجوه الحياة فى البحر فى ادق مراحلها فيرى عالما ضخما جباراً لا يقل عظمه عن عالم الأرض ·

وفى السجن انفسح المجال للتأمل الصحفى، للفكر والفلسفة والدراسه فى محيط المجتمع والأسره وفى محيط العمل نفسه ؛ وفى مطالعة هذا الكون الضخم الذى كانت الحياة الزدحمه فى المدينة لا تعطى الفرصة لتأمله ..

كان الكون مكشوفا امامه ، . عاريا ، هذه الصحراء العريضة برمالها ، وهذه الشمس تبزغ وتغيب والليل بوحشته ، والسماء بنجومها ، والهواء بعواصفه ونسماته ، والصيف بقيظه والشتاء ببرده ... والامطار تندفع والغيوم تجيء والسحب تذهب ..

هذا الكون كله كان يطالعه بوضوح فلا حجب تحجبه عنه ، لا عمارات ولا شوارع ضيقه ، ولا مشاغل ... كان يعيش مع عظمة الله في الكون ؛ يقتات من هذا الجمال ويرى رهبة الطبيعة في مختلف صورها وفنونها .

وتكونت صداقات حية عاشت وامتدت فيما بعد ، منذ قامت في ظلال الأحساس بالظلم الاجتماعى ، والتطلع إلى الحريه وترقب ساعة الخلاص .

ولعله لو سئل اليوم عن أثر هذه التجربة في نفسه لقال دون تردد « اليقظة والحذر والعمل الواضح » ؛ « فالحريه » هي أغلى مايملك الإنسان ولا يعرف مدى قيمتها إلا من فقدها . .

كان مسجونا إلى غير حد محدود ولا يوم موعود ؛ ولذلك كان يتطلع في كل ساعة إلى الخروج ، كانت كل كلمة في صحيفة أو على لسان أو مظهر من المظاهر يملا القلب أحساساً بالشوق ..

وامتدت أيام الاعتقال مليئة بالوحشه إلى الحياة نفسها فلما عاد إليها اضطربت اعصابه ولم يكن في مقدوره أن يمارسها ممارسة صالحة إلا بعد وقت غير قليل .

لعل مرد ذلك إلى أن انقطاع الإنسان عن أمر من الأمور من شأنه أن يفقده حاستة ، ومن ثم تحتاج الى وقت ماحتى يعود مرة أخرى إلى ممارسته على النحو الطبيعى .

هى أربعة عشر شهراً قضاها أسيراً بين صحراء ها كستب وصحراء الطور ، كانت قاسية على النفس التى ألفت الحرية ولكنها كانت هزة نفسية ردت إلى الروح احساساً صادقا بقيمة الذات واتاحت الفرصة للنفس للبحث عن الغد ، وعن السبيل الذى يسلكه الكاتب حتى يحتفظ بحريته ويؤدى واجبه كصاحب قلم فى مجاله الصحيح دون أن يمس فطرته .

كان الأسر — قبل الثورة — شرفا لاشك فيه : كانت مقاومة العهد الغابر صفحة فخار . كانت هذه الأقلام التى وضع أصحابها وراء الأسوار تحمل المعول لتحطم ذلك العهد وتقرب مغربه وتلحن نغمات السحر للفجر الوليد ، فجر الثورة واليقظة فى مجال الحرية وشرف الكلمة .

ولكن هل كان الاسر شراً كله ، أو ظلاما كله ، أو كان هما والما . . اعتقد أن لا . بل كان فرصة حقيقية للتخلص من قيود المجتمع ومسئولياته وتكاليفه . والاتجاه إلى لون من المرح تتغطى به النفس على متاعب القيد ، وتجعل منه « سد فراغ » للقبوع خلف الأسوار .

أنها أربعمائة من الأيام العجاف الثلاظ . ومن الليالى النابغية الاليمة ، لكم كان يقبل الليل مؤلما قاسيا . فياضا بالأحزان . يعمق الهموم ويجدد الآلام ، ويوقد اللهب فى القلب الحزين .

ويطول الليل وصاحبنا ساهر قلق أرق . يجتر أحزانه وذكرياته وآماله . .

ويتقلب فيرى نفسه قد جاوز الثلاثين وأوغل فى العقد الرابع ، أنه يصحو فجأة على هذه الحقيقة الرهيبة ، فيرى أنه عاش أعواما صماء كأنما عاشها فى قبو مظلم تحت الأرض .

اين الأفراح والاماني . أين المتع والرغبات

ويسأل نفسه لماذا طلق هذه الحياة وجفاها . . ولماذا لم يأخذ منها بالحظ الأوفى .

لمـــاذا عاش على الكتب والاوراق فى داخل الغرف المغلقة وتحت أضواء المصابيح والدنيا زهرة مشرقة، متفتحة الابواب، لماذا لا يعب منها ما يشاء ، ترى، هل حال دون ذلك طبيعته المنطوية .

كان يرى فى أحلامه أنه يحاول أن يدرك القطار فيتعثر فى السير ويظن أن فى أقدامه ما يرهقه ، فلا يصل إلا بعض أن يغادر الرصيف .

وقال المنجمون له أنه سيخرج من سجنه عندما يتناقص القمر ؛ فهو لذلك يرقب القمر منذ يخرج هلالا حتى يعلو فى كبد السماء فيصير بدراً . فإذا بدأ يتناقص أخذ يعلل نفسه بالاماني ويعد الأيام وعاش على هذا الوهم ثلاثة عشر قمراً .. لا يني ينتظر القمر ، ويرفع رأسه إلى السماء كل ليلة . وكل صباح حتى يتناقص القمر ويتناقص معه العمر .. ويتساءل متى يفتح الباب !

كل يوم فى هذا العام أشبه بمثيله فى العام الفائت ، الصور هى هى بعينها . أسلاك شائكة . وحراس . وصحراء واسعه . وتلال من الرمال . وقطارات تقبل وتمضى . وطائرات تحلق فى الفضاء وتأز ازيزا .

وهناك على شاطىء البحر : البحر الأحمر ؛ معرض من القواقع والمحار ؛ حيث تشاهد صنوفا من الأسماك . الماء النمير يتفجر من الصخر الجبل الاشم : جبل موسى يشرف على الصحراء فى جلال ! كان من أحب مايحرص عليه أن يرى « نوبة » رفع العلم فى الصباح والمساء !

كان يرقب لحظه الشروق . ولحظة الغروب فى يقظه حتى لا يفوته المنظر الشائق . تلك الموسيقى الدافقه بالعزم والآمل التى تتابع رفع العلم وطيه .. ثم يظل طيله اليوم يرقبه وهو يرف فوق ساريته فى رضا وبشر .

لم يكن يعرف كيف يفسر هذا الشعور حين تهفو النفس فى حنين للتطلع إلى العلم وهو يخفق .

كم هو جميل « علم » بلادنا ، نلقاه فى غربة الاعتقال ، وغمرة القيد فنذكر مصر ونحبها ..

نراه فى الصحراء الجرداء .. ذات الرمال الصفراء فنذكر صفحة الوادى ومروجه الخضراء ..

نلمح صفحته وهى تداعب الهواء فتفيض النفس بالجلال والاخلاص والولاء... للوطن.

أنها الحياة على حدود الصحراء حيث تصفر الريح وتعوى . والجو يتقلب فيثير الرمال .

أنها الأيام الطويله التى تتعلق فيها القلوب بالامال المكذوبه التى تتردد كل يوم .

كان أجدر بالنفس أن تسكن إلى الاقامه وترضخ إلى القضاء .

أنها سياحة طويلة فى عالم الفكر تشمل الماضى كله وتطوف به وتنتقل بين مراحله المختلفه . وهى فى خلال عرضها تأخذسبيل النقدالصريح للاخطاء .

ثم تجرى النفس وراء الغيب وتتطلع إلى المجهول وتجد الخرافة مكانا فى النفس الضعيفه ، لعل للسجن أثره فى قبولها للاوهام التى كانت ترفضها فى عالم الحريه .

وهنا تبدو « الحريه » غاليه لا شىء يصل إلى روعتها وجلالها .

أنها فى نظره هى الحياة واعز مافى الحياة ، ايه قيمة لأعظم متاع دون هذه الحريه التى تمنح الإنسان حقه فى أن يأخذ ويدع ، ويذهب هنا وهناك دون أن يجد هذه السدود والاسوار والاسلاك تحده وتحصره فى مكانه وتبدو الدنيا المحرومه من وراء الاسوار حلوة رائعه ، كأنما قدخلت من المتاعب والمشاق . ولقد يدفع المرء فى سبيل الوصول اليها اعز مايملك دون أن يزعجه ذلك أو يراه غاليا ..

ولقد تمر الأيام ، والنفس قد سكنت إلى القيد ، ثم لا تلبث أن تثور

العواصف فى اعماقها . وينتابها الضيق والجزع والشوق إلى الأحبة الذين قطع البعاد دونهم .

وفى السجن تنصقل النفس من اوهام الحياة وأطماعها . وتبدو وهى تحلق فى آفاق عليا وتتطلع إلى عمل كبير ، قريبه إلى الله . راغبة فى الدعاء والابتهال .

ليس أقسى من أيام الاعياد والمواسم . حيث يذكر المرء أهله وابنائه ، وعندما كانت أصوات التكبير تأتى من بعيد ، كانت النفس تنصت فى شوق وحنان .

ومن وراء الاسوار تتكشف النفوس على حقيقتها . وتخلع اثواب التكلف والرياء التى تغمر حياتنا .

لقد كانت الحياة تافهة لديه ، فإذا هى تبدو من وراء الأسوارغاليه .

أنه يعتقد موقنا أن هذه المحنة قد القت خبرة إليه وتجربة ، هى ذخيرة العمر كله ، أنها قد كشفت أمامه حقيقة الناس ، وأزاحت ستاراً كان صفيقا أمام عينيه ، فعرف من الدنيا ما كان يجهل ، عرف كيف تنكرله الناس وقت الشده .. وقد خلعوا أثواب أوهامهم وأكاذيبهم .

لعله مما لا يتفق لكثيرين من الكتاب أن يستهل أحدهم حياته الفكرية بالسفر إلى الحجاز ، ولكن هكذا أريد أن يبدأ حياته الصحفية بأن يذهب فى رحلة إلى أرض الله . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يعبر فيها البحر من بلادنا إلى جزيرة العرب حيث التقى بعدد كبير من رجالات العالم الإسلامى فى هذه الفترة التى يتجمع فيها الوفود من كل مكان ويتاح لها أن تتدارس قضاياها وتبحث مشاكلها ، كان أهم ما يشغل العالم فى هذه الفترة : قضية فلسطين ؛ كان المسلمون فى جميع أنحاء العالم يشفقون من توسع الخطر الصهيونى فى هذا الجزء الحساس من العالم الإسلامى ، ولكن المشاعر كلها كانت حماسات كلامية ، ولم يكن من بينها شىء عملى ..

لقد التقى بأعضاء وفد فلسطين وتحدث معهم طويلا ودرس قضية فلسطين وعاش معهم أحلامهم ، وسمع ما دار بينهم وبين الملك عبد العزيز آل سعود وما دار بينهم وبين زعماء العرب والعالم الإسلامى ...

وما زال قلبه يخفق كلما مرت ذكريات هذه الرحلة إلى الله ، وما زال يذكر كيف كان القلب موزعا بين توديع مصر الحبيبة واستقبال البحر

الأحمر الذى كان يوما ما بحيرة عربية • وكان التفكير منصرفا إلى الأيام المقبلة التى سيقضيها فى ضيافة الله عند بيته الحرم ، وفى أرض النبوة بالمدينة المنورة بأنوار الرسول •

وكان الحديث يسرى سريان النور فى الظلماء • وتنكشف الصحراء مشرقة تستيقظ على ضوء الشمس من نومها لتحمل هؤلاء الذاهبين تحيات التوديع •

صحراء فسيحة الأرجاء . وجبال جرداء • ورمال صفراء • هذه أرض الوطن العزيز المهجورة • ما أحقنا بها نستغلها وننقب عما فى جوفها من كنوز .

الساعة العاشرة تماما • أشرقت السويس ، هذه البلدة الطيبة الغالية التى لا تبرح مقيمة آثارها فى قلب كل مصرى وذاكرته • لأن بها القناة والقناة شريان الحياة فى قلب العالم الإسلامى كله • هى رمز حريتنا وسيادتنا • ونحن الذين بنيناها ونحن أحق الناس بها حراسة وحماية ودفاعا واستغلالا •

تمهل القطار وهو يدخلها إجلالاً لهذا الخاطر الذى يستظهره القلب حين تقع العين على القناة • ها هى بورتوفيق تبدو . وعلى ثبج الماء تلوح « كنديلا » • • الباخرة ، معدة مجهزة ، كأنها الحسناء تستقبل يوم عرسها . وركب الصحب الباخرة ، وفى قلوبهم شوق وحنين إلى بيت الله •

خفق القلب حين وقع البصر على الباخرة الرابضة فى الميناء لتنقله وصحبه باسم الله وبركته إلى أقدس مطاف .

والله يعلم أنه لا الأهل ولا الدنيا كانت فى القلوب ساعة أن هلت طلائعها . إنه كان أمر واحد . هو الشوق إلى الكعبة والقربة إلى الله ، والحج إلى بيت الله والسير حيث سار النبى الحبيب .

ركب الباخرة باسم الله . ثم تحركت على بركة الله ، بعد أن دوى نفيرها دوى الوداع . هذا الدوى الذى يهز القلوب ويبعث الدمع فى المآق

وتلاقت العيون والوجوه فى شوق وحزن ، وأمل ورجاء ، الدعاء يرتفع من القلوب والألسنة إلى الله أن يعيد الغائب .

وما أن تتحرك الباخرة حتى ينتقل كل إلى مخدعه يناجى جاره أو يحدث صديقه ، وما أحلى حديث الناس فى بدأ الاغتراب وهم على صدر البحر .

هذا هو البحر الأحمر ، وها هى معالم السويس تختفى مسرعة ، وها هى فوق ثبج الماء . والباخرة تمخر هذا العباب هادئة ناعمة ، مطمئنة وادعة .

* * *

البحر جميل . لونه أزرق قاتم . أصبحنا مبكرين ، صلينا وجلسنا نستمع إلى مناسك الحج من إمام صالح ، افترش ركاب الدرجة الثالثة أرض المركب وطرقاتها . مصاعدها ومهابطها . وهم راضون ناعمون ، البحر اللجى قد انبسطت رقعته ، ونحن كدود على عود .

* * *

اليوم يوم الوصول . وهذه جبال الجزيرة العربية تبدو على الأفق البعيد فتتهلل لها الوجوه . وتخفق القلوب . ويزداد الحنين إلى البقاع المقدسة . بل وتذرف الدموع . والنساء يزغردن والكل يتأهب للنزول .

وتتراءى فى الأفق « جدة » على البعد ثم تقترب حتى تظهر مبانيها ومراسيها والبواخر الراسية عندها .

وننزل جدة فلا نقيم فيها إلا القليل من الوقت ، ثم نقصد إلى مكة الحرام مشوقين فرحين متلهفين .. ركبنا سيارتنا بعد الغروب ، وكان الليل يمد أطرافه على الجبال الجرداء ، ونحن فى طريقنا إلى مكة المكرمة مهللين نستمع إلى تاريخ الأماكن الفيح التى أشرق عليها نور النبوة . والتى بنى بها إبراهيم عليه السلام الكعبة المعظمة التى يتجه الناس إليها ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى كل صلاة ، إعلانا بأنها المنار الأول للاسلام ، والجامعة الكبرى التى تربط بين جناحى الدنيا .

وعلى أبواب مكة وقفنا . وقفنا نستلهم جلال الذكرى ، وجلال المكان لنستشعر الهدى والعزم على أداء فريضة الحج ، وفى (الشميسى) الحديبية وقفنا مرة أخرى نذكر تاريخ هذا المكان الذى صد فيه أهل مكة رسول الله وصحابته عن دخول مكة . وقد جاءوها معتمرين لا يقصدون إلا البيت الحرام . ثم عقد بينهم أول عقد اعترف فيه المشركون بقوة المسلمين وعزة الإسلام . وفيه بايع الرسول بيعة الرضوان حين تغيب عثمان . حين خشى الرسول وصحبه أن يكون قد أصابه سوء .

ووقفنا نستأذن دخول حرم مكة . هكذا وتحت جناح الليل كانت المعانى تبرق وتلمع ، كالضوء اللماع . ونحن نذكر مدى ما حفرته الحديبية وغزوة فتح مكة فى تاريخ الإسلام .

وانتهى بنا السير الى ذى طوى فنزلنا وتركنا بعض الأخوة يتقدمون إلى مكة . وبتنا بذى طوى كما فعل الرسول . وما هجعنا إلا قليلا لأن الشوق إلى البيت الحرام كان غلابا .

وذهبنا إلى بئر ذى «طوى» فاغتسلنا ، وصلينا الصبح قبل الأسفار . ثم أعددنا انفسنا لدخول مكة حين نزلنا نسعى مهللين مكبرين

كانت القلوب تخفق لجلال الموقف ، ورهبة المنظر ، وكانت العيون تدمع . وبدأنا نطوف فى خشوع ، وقد تعرى الرأس وحسر الذراع ، فلما حاذينا الحجر الأسود كبرنا ونوينا طواف القدوم ، ورملنا فى الأشواط الثلاثة ثم مشينا فى الأربعة الأخرى . صلينا عند مقام إبراهيم وشربنا

من زمزم . وخرجنا من باب الصفا نسعى بين الصفا والمروه ، والمطوف يلقننا دعاء الطواف والسعى بلغته التقليدية فيضعف من رهبة الموقف ويخفف جلال السعى فى النفوس .

ولما انتهينا من الأشواط السبعة حلقنا وقصرنا وبذلك تحللنا ، تحلل المتعة إلى يوم التروية .

ثم أوينا إلى دارنا نستريح ، ولكن القلوب كانت يقظى لم يصبها تعب ولا كلال . لأن قوة الله تعمل فيها ، فلم نشعر بجهد . أين نحن من الجهد والتعب ، هذا هو الصفا الذى صعد عليه محمد ينادى قبائل مكة فإذا اجتمعوا إليه قال لهم : ياقوم : لو أنى أخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الوادى تجرى ! أكنتم مصدق . قالوا : ما عهدنا عليك كذبا قط ! قال : أنى رسول الله إليكم بين يدى عذاب شديد .

أهذه هى الكعبة المعظمة التى كان المسلمون فى أول أمرهم لا يستطيعون الصلاة عندها خوفا من بطش قريش . والتى صلى إليها رسول الله بالمسلمين بعد أن أسلم عمر !

أهذا هو الحجر الأسود الذى قبلة رسول الله والذى قال له عمر : إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع . ووالله لولا إنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

* * *

ها نحن بمكة . الله أكبر ...

أنحن فى مكة حقا . فى رحاب القدس والطهر ومعنا شيخنا الحبيب . ليس لنا إلا أن نطوف بالكعبة ونرى مختلف الأجناس والألوان تطوف الكعبة . سود وبيض وحمر ، ورجال ونساء . شعور سوداء وحمراء . هنود وأندوس وسودان ومغاربة ونجديون ويمانيون .

هذه زمزم نرتوى من مائهـا ونعب كما نشاء . كلما دخلنا الحرم وخرجنا منه .

* * *

الحرم فى الغروب . بدأت الشمس تنحسر عن فناء الحرم الواسع الشاسع ، بدأ ظل الجبال العالية . وجبل أبى قبيس الشامخ ، يكسو المسجد حلة من الجمال على ما به من جلال .

ها نحن نطوف بالكعبة حينا . ونطوف بالناس حينا آخر . فنلتقى هناك ببركات السماء ودعوات الخير والإيمان . ثم نلتقى بالأخوة من المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها .

أما أخونا التركى الذى لقيناه فهو لا يعرف من العربية إلا القليل ولا يتكلمها .

* * *

تأهبنا للذهاب إلى منى . ولبسنا ملابس الإحرام . وبدأنا التلبية

بعد الصلاة . تحركت العربة ونحن نلبي ، حتى وصلنا « منى » قبل الظهر هناك آوينا إلى منازل « منى » نستريح .

وفي المساء ذهبنا إلى مسجد « الخيف » فصلينا المغرب والعشاء ، الجبال تحيط بمنى من كل جانب وبجوار خيامنا وقريبا من العقبة الكبرى مذبح إسماعيل ، والمسافة بين مكة ومنى سبعة كيلو مترات قطعها البعض مشيا على الأقدام .

• • •

أصبح يوم عرفة فبكرنا إلى مسجد « الخيف » نصلي الصبح . ثم ركبنا السيارة إلى سفح عرفات باسم الله وعلى بركة الله فوصلناها قبيل الظهر ، حيث هرعنا توا إلى مسجد « نمرة » .

ما هذا السفح العريض الممتد الذي لا يحده الطرف وقد امتلأ بخيام الحجاج من مختلف أقطار الأرض جاءوا ملبين مكبرين ، إلى عرفات .

أي جلال . في سفح واحد هذه الألوف المؤلفة ، ندعو الله في ضراعة وذلة وافتقار .

ها هي نسمات الأصيل يرسلها الله تعالى لتخفف لفح الشمس عن حجيجه ، الذين هرعوا إلى الجبل يتسلقونه ويدعون ربهم تضرعا وخفية .

ومضت الدعوات ترتفع في حرقة وضراعة ، وفي جلال وخشوع ، وانهملت الدموع وارتفع النحيب .

صرنا إلى الجبل فصعدنا الصخرات الكبار التي كان يصعدها رسول الله ندعو في حرقة الشوق إلى المغفرة ولهفة الظامئ إلى القبول . ثم تنطوي صفحة النهار وتغيب الشمس ويتوارى قرصها وراء الجبال ، وما نزال ندعو إلى أن يمد الليل رواقه فينتشر الظلام ثم نفيض من حيث أفاض الناس .

ها هو الفوج الزاخر ينصرف في رعاية الله إلى المزدلفة حيث صلينا ونمنا وفي صبيحة الخميس اليوم الأول للتشريق (١٠ ذي الحجة) صحونا مبكرين حيث صلينا في مسجد المشعر الحرام وجمعنا الجمرات ثم عدنا إلى منى لنقضي بها الجمعة والسبت .

ورمينا جمرة العقبة الكبرى بعد وصولنا . ووقفنا هناك هنيهة نتطلع يمنة ويسرة ، لنرى بعين الخيال مكان البيعة السبعينية التي بايع رسول الله أهل يثرب والأوس والخزرج ومعه عمه العباس ، تلك التي كانت كوة النور في الهجرة الكبرى .

نعم ؛ عدنا يوم العيد إلى مكة فطفنا طواف الإفاضة وسعينا ثم قصرنا وحلقنا وتحللنا تحللا أصغراً ، وبذلك تمت مناسك الحج .

* * *

هذا جبل أبي قبيس ، صعدناه في الصباح الباكر حتى وصلنا قمته وأشرفنا منه على مكة .. ووقفنا في المكان الذي أذن فيه بلال عند ما شرع الأذان لأول مرة .

وهذا حراء؟ قصدناه صبيحة يوم مشرق مشمس ، طيب الهواء ، خفيف النسيم ، ظللنا نصعد فيه ساعة كاملة أجهدت منا القوى ، وكان أسرعنا صعوداً أخفنا جسما . ثم دلفنا إلى الغار الذى اتخذه رسول الله للعبادة يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، ويتعبد فيه شهر رمضان على بعض الروايات .

أى جلال فى هذا المكان . فى هذا الغار . حيث كان الرسول يتعبد عند ما هبط عليه جبريل بآى الذكر الحكيم . فنزل رسول الله ترتعد فرائصه حتى بلغ منزله ، يقول لزوجه خديجة. زملونى .. زملونى .

* * *

لعل مما يذكره الإنسان دهشا معجبا إن أول ما يصافحك وأنت تدخل الجزيرة العربية الجبال الجرداء والرمال المتناثرة . وهى أشد ما تكون إحاطة بمكة والمدنية فإذا ما دلفت إلى قلب هذه الجبال المكية لقيت البيت بجلاله وبهائه . وإذا ما دلفت إلى قلب الجبال المدنية لقيت مسجد الرسول بجماله وإشراقه ..

القلب خافق لا يسكن .. يتقلب من وداع إلى استقبال ، ما يعرف كيف تجف دموع الوداع حتى تهطل دموع اللقاء ..

ها نحن فى مساء الإثنين ٢١ ذى الحجة نودع بيت الله الحرام ونطوف الكعبة طواف الوداع .

القلب محزون والنفس تائهة . منذ حم الفراق ، أنودع مـكة ، ونودع هذا البيت . والقدأ حببناه وألفناه . هذا البيت الذى ما وقفنا تجاهه مرة إلا وانصرف من النفس كل أمر من أمور الدنيا .

هذه هى الـكعبة نودعها والقلب خافق والنفس تئن أنات المريض الذى ذاق برد الشفاء لحظة .

أى وحشة تملأ النفس فى هذا الليل ونحن نودع البيت الحرام ؟ الدموع تهطل . وها نحن نتراجع إلى الوراء ، مودعين لا ندرى متى نعود .

وتمضى بنا السيارة ونحن نودع حوائط المسجد الحرام فحوائط مكة ، حزانى آسفين .

* * *

الطريق بين جدة والمدينة طريق طويل ، أنه حوالى الخمسمائة كيلو ، تقطعه السيارات فى يومين كاملين ، مع استراحات قصيرة فى الطريق ويبيت الزوار عادة فى « رابغ » يأكلون سمك البحر الأحمر ويشربون من ماء الآبار والأمطار .

اتجهت العربة شطر يثرب الحبيبة ، أى طيبة الجميلة ، التى يحمل ثراها أعرق جدث وأطهر جسد . فنصلها قريب الأصيل .

هنا الهجرة ، فى هذا الطريق ممثلة فى الليل والنهار . فى الجبال والوديان . فى طريق الساحل . وفى طريق تهامة . فى البرد والحر ، بأجلى بيان -

يبدأ الطريق فبساحل البحر الأحمر وقتا غير قليل . ثم يباعده إلى بطن الوادى . ثم تظهر سلاسل الجبال قريب يثرب . وتبدو المدنية بمآذن مسجدها العظيم وفيه قبة الرسول على بعـد ساعة تقريبا منها فيهلل المسافرون لأنهم سيسيرون حيث سار رسول الله ويصلون حيث صلى . ويرون مواقع بيوته وغزواته ووقائعه ، ويفرح هؤلاء وهؤلاء جميعا لأن أرواحهم ستتصل عن قرب بروح النبي .

ونزلنا فى باب المدينة من العربة ، ندخلها سعيا تأدبا مع ساكنها ، وقديما قال الشاعر :

وإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

هذه هى المدينة يكسوها نور وجمال .

وكان مساء ،وفى الصباح الباكر أسرعنا إلى الحرم النبوى نمتع الطرف بهذا الجلال الذى يجثم فى ذكريات هذا المسجد وفى محرابه .

هذه هى حدود المسجد القديم ، تكشف عنها الأعمدة الملونة ، هذه الروضة الشريفة بين القبر والمنبر تراها دائما مزدحمة . هذا المنبر العثمانى المصنوع من الرمر الفاخر والمطعم بالذهب الخالص . وهـذا ستار القبر الشريف .

هنا تضجع جنوب محمد وأبو بكر وعمر .. بعد أن جاهدت وناضلت وهذا القبر موضع حجرة عائشة ، وفى هذا المحراب قتل عمر وهو يصلى الصبح غلسا بطعنة من ابن ملجم ..

وأمام هذا المسجد كانت تركز الراية حتى يصلى الغزاة ويخرجون .

* * *

أيام المدينة طيبة ، ولياليها شعر وجمال .

هنا تتجلى روائع الذكريات . أهذه حقا منازل الوحى . جبريل رواح بها غداء ، هنا كانت حلقات العلم والذكر . هنا كان يجلس النبي ومن حوله صحابته ، هنا كان يجلس عمر بكوم المال ويبيت عنده ثم يقسمه فى الصباح . وهنا كان يجلس سعيد بن المسيب فلا يترك مكانه الذى يعتكف فيه مهما كان الأمر ويخلى المسجد للوليد فلا يخرج منه . إى وربى كل هذا كان هنا .

هكذا نتراءى هذه الصور وأمثالها ونحن جلوس بمسجد النبى نتطلع إلى الأعمدة الجميلة والسقف ذى القباب وآيات القرآن منقوشة على الجدران .

* * *

الركب سائر إلى جبل أحد ... ليقف حيث وقف جند المسلمين هناك ننزل فنرى « أحداً » جاثم ، وقد كساه مرور الزمن رهبة . يخفق القلب حين يقع البصر عليه وفى ساحته وفى ثراه وعلى مرأى منـه كانت موقعة أحد .

وهذا جبل الرماة الذى أوقف النبي عليه الرماة وعلى رأسهم عبد الله ابن جبير وأمرهم ألا يتحركوا وإن رأوا المحاربين يتخطفهم الطير .

وهذا جبل عينين حيث قتل «حمزة» . وهذا مكانه الذى صلى فيه النبى على سبعين شهيدا . وهو لا يبرح . وهنا قريب من مكان الغزاة قتل مصعب أول سفير فى الإسلام قدم المدينة ودعا إلى الله ..

ومضينا حيث مسجد قباء الذى صلى النبى فيه أول دخوله يثرب . وهذا مسجد القبلتين . وهذا مسجد الجمعة ، وهذا مسجد الفتح وهذه مواقع الخندق وآثار بنى النضير .

وهذا هو العقيق . وهذه بساتين المدينة فى طريق قباء . وهذا بئر الخاتم ، وقبر محمد بن عبد الله النفس الزكية . وهـذا مسجد الراية وجبل سلع .

وفى سفح « أحد » رأينا قبور الشهداء

هذا بقيع الغرق : قبور مكشوفة لا ستر لها ولا علامة يتعرف بها الناس إلى القبور . إنما هى رسوم على سطح الأرض متشابهة . يقودنا إليها المزورون . فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان ؛ هنا عثمان بن مظعون وفى أحضانه ابراهيم بن رسول الله .

وهنا أبى سعيد الخدرى . وهذا قبر نافع شيخ القراء . وهنا عمات الرسول : عاتـكة وصفية وفاطمة أم البنين ، وهنا مالك بن أنس إمام دار الهجرة وصاحب الموطأ . وهنا عثمان . وهنا عقيل وهنا العباس . وهذه فاطمة وابنها الحسن وهذه أم كلثوم ورقية وزينب .

وهنا جعفر الصادق . وهنا محمد الباقر .

وهنا عبد الله بن جعفر الطيار قتيل مؤتة وذى الجناحين وهنا زوجات النبي .. عائشة وزينب وسودة وحفصه وأم سلمه وميمونة وجويرية .

ما أطهر ما حويت يابقيع الغرقد .

* * *

وهذه مكتبات المدينة . بها كنوز من الصحف والمجلدات . مؤلفات قديمة كتبت بأيدى علماء لهم فى التاريخ والفقه والتشريع مكان . وقد جمعت على مر السنين ، وأعدت فى أطر فخمة فى هذه الأبنية الملاصقة للحرم المدنى وقريبة منه : أمثال مكتبة السلطان محمود وشيخ الإسلام حكمت ومن هذه المكتبة الأخيرة .. ترى القبة النبوية قائمة أمامك .. ومنها ترى أماكن حجرات حفصة ومنزل عثمان الذى طعن فية ودار قضاء عمر ، وقد رأينا فى هذه المكتبة كتاب فى الجغرافيا كان بمكتبة المهدى ابن المنصور حاول الألمان شراءه فى أيام العثمانيين باثنى عشر ألفا من الجنيهات الذهبية .

وقد أرانا أمينها السيد ابراهيم حمدى الدينار الذى ضربه عبد الملك ابن مروان . وهو أول دينار ضرب فى الإسلام من الذهب الخالص . وقد ضرب منه مليون دينار وخطه كوفى (٨٣ هجرية) .

ورأينا عنـده بعض وريقات من تفسير عبد الله بن عباس محررة فى رجب ٣١٦ بخط أحد العلماء .

* * *

وداعا يا بلد الرسول . ويا مجمع تاريخ الرعيل الأول . أماكن إقامة وقبور شهداء وقواعد غزوات ومساجد ركوع وتهجد ..

يا مثوى النبى والصديق والفاروق وسيد الشهداء وذى النورين ..

ها هو ذا الأصيل يكشف فى سحر الصحراء الشاسعة وجمال جبال المدينة الجرداء .. ها هى طلائع العودة : جدة ثغر الحجاز .

ثم ها نحن فى الزورق البخارى نقطع البحر ونبتعد رويدا رويدا عن أرض جزيرة العرب إلى الباخرة .

يوميات عطارد

(على عتبة الأربعين)

« هو »

« عند ما أصفه لك ستراه رجلا قد حمل أعباء السنين فوق كتفيه فاكتهل بها وهو ما يزال بعد فى سن الشباب .. إنه يمشى مرهقا متعبا قد حمل هموم الدنيا كلها . وقد تغضن وجهه من غلبة الهم والجرى وراء الحياة الأفضل . وبدا كأنما يعيش فى أحلام بعيدة . إنه لم يفرح يوما بالرغم من المكاسب التى حصل عليها ، لأنه ما زال يتطلع إلى مزيد منها . إنه يحس دائما أنه لا يزال فى الطريق الرملى الطويل يمشى إلى غايته البعيدة ..

إنه لا يحس أبداً بما قطعه من الطريق ولا يريد أن ينظر إليه ، وإنما ينظر إلى الجزء الباقى الذى ما زال بعيداً لا نهاية له . لذلك فهو مهموم دائما . ضيق بالدنيا ، يحس بوقر المتاعب التى ما تزال ترهقه وهو سائر فى طريقه . إنه يحس بأن الطريق قد طال به . وان الذين كانوا معه أو جاءوا بعده قد وصلوا ، وانه بعد لم يصل . ولكنه يشفق من الوصول فما بعده غير الانحدار .. انه وإن طال به الطريق فإن كل مرحلة يقطعها لا يرتد عنها أبدا . ولذلك فهو لا يرى بأسا من أن يطول به الطريق ثمة لأنه عند ما يصل سيكون قد وصل بحق . ويكون فى كل مرحلة من مراحل حياته قد قطعها بثقة وإصالة .. »

عطارد

- ٢ -

أيها الألم : أيها الرفيق الذى صاحبنى مذ كنت طفلا ، متى تدعنى وتنصرف عنى . كنت رفيق صباى . وكنت أظن أنك ستفارقنى عند ما يرتفع السن . وتدور دورة الفلك . ويلق الزمن فى يدى النضار . كنت أظن أن المال حينما يملأ جيبى سيطفىء تلك النار التى توقدها فى قلبى .

ولكنك مازلت رفيق رغم كل شىء ، كنت أظن أنك حليف الفقر الذى ولى . كنت أراك صادراً عن المادة . فإذا بى أراك نابعا من الروح . هذا الروح الغريب الذى لم يجد من يفهمه أو يتجاوب معه . أو يمنحه فيض الهناء . أن الطاقة النفسيه التى أعيش فيها تظل فارغة لا يملأها إلا الألم .

لست أدرى كيف تغمر نفسى قسوة الزمن وكل شىء فى قبضة يدى، أننى فى الحقيقة أبحث عن شىء مجهول غامض غريب لا أدريه ..

هل هو « الحب » . أم هو «المجد» ، أيهما أملى الضايع ، أيهما لو وجدته أمتلات حياتى وودعت الألم ، وتبخر هذا الأحساس بالوحشة المفزعة والفراغ الهائل والألام المريرة ، والأيام المتشابهة من العمر .

كلما احسست أنى أقتربت من الأمل . وكدت أفارق الألم إذ بى أنهزم مرة أخرى وأعود إليه .

إنه رفيق عزيز ، صاحبنى أعواما طوالا . منذ مطلع الصبا ومضى معى يتسلق الصخور .

أنه « الألم » يبعث فى نفسى القلق والحيرة الموحشة، ليس فيها واحة أو ظل ظليل ، ليست الموسيقى ولا الآدب ولا الفلسفة ولا السينما تستطيع أن تملأ هذا الفراغ . أن أجمل منظر ساحر فى الطبيعة ؛ فى البحر ، فى السماء لا يستطيع أن يهزنى . أنه يملأ نفسى بالألم ؛ أننى أراه إطاراً لصورة غائبة ، هل هى افتقاد الحب أم ضيعة المجد . أن للمجد ما يزال يدفعنى بعنف ، ويسود ضجيجه على صياح روحى ونداء عاطفتى . هل هناك قوة تستطيع أن تنتزعنى من قيودى ، وتخلصنى من الأغلال الثقيلة التى كبلتنى . هل استطيع أن أخرج من جحرى ، من وحدتى ، من صومعتى ، هل عندى من الجرأة ما يمكنى من تحطيم القوقعة التى أعيش فيها مع الورق والكتب والقلم لانفذ إلى حياة التحرر من القلم والورق .

لا اريد أن اقرأ قصة الحياة بل أن أقتحم غمار هذه الحياة . أريد أن أعيش القصة . لا يكفينى أن أشاهد الرواية ، وأنما أحب أن أكون أحد أبطالها الذين يتحركون على المسرح : مسرح الحياة . أننى أبحث عن حياة جديدة بعد أن ركدت الحياة التى أعيشها وأصابها الملل والفتور . بعد أن غدت كالثوب المهلهل . أنها الحيرة تغمر أفاق نفسى بين حين وحين ، وما تختفى إلا تحت ضغط عوامل سير الحياة . أنى أندفع فى ميدان العمل الأدبى بقوة ، أحاول أن أحدث الضجيج بالطبل الداوى ، لأغطى على الأصوات التى تنبعث من الأعماق تطالبنى أن أعيش الحياة . ثم أجدنى بعد الجهد الضخم أتساءل : ما نهاية هذه الحياة وما غايتها .. وهل يكفى أن يعيش الإنسان فى حجرات مغلقة مكدسة بالأوراق والكتب والأقلام

والأحبار ، لا يصيص لها من نور . وهل يمكن أن تعيش النفس هذه الحياة دون أن يساورها الملل العنيف .

أنها نفس المفكر الشاعر التى تهتز للجمال وتفرح بالنغم الحلو وتتطلع إلى الحب :

أنها عشر سنوات الأن منذ غادرت الريف إلى القاهرة تضيتها مكبا هذه الانكبابة على الورق ..

ماعدا بعض لقطات خاطفة ، أضاءت كالشهب المارقة فى ظلام أيامى ، ثم هى تنطوى مرة أخرى ، لاعود إلى أحزانى ووحدتى والآمى ..

وتتجدد الأشواق فأعيش ثمة فى الماضى ، أحاول أن أجدده ، وهل يبعث الميت ، ما أحوجنى أن أدع هذه الأوراق وأن أنصرف عنها إلى الحياة . إلى النور .

- ٣ -

هل جاء السلام إلى النفس مع العيد ؛ حقا : أحس أن نفسي قد آبت إلى شيء من الرضا والطمأنينة . وكأنما قد تبددت كل المتاعب والمخاوف .

وأصبح صباح العيد . فيه روحانية وجلال . وفيه اقتراب من الله . أنه يهز النفس بالدعاء والرجاء فى الله . هذه اللحظات الأولى من الصباح عند ما يكون الضياء فى مولده . وإبانه . يبهر الروح ويميدها إلى الآمال .

الصباح الجديد بإشراقة وهدوءه ، يبعث فى النفس أملا غامضا غير محدود . أصوات العصافير تحمل من بعيد إلى اذنى لحن موسيقى . صوت القطار ينسق مع أصوات العصافير مقطوعة أخرى . وهى مع الهواء الرقراق تبعث فى نفسي يقظة فكرية .

لست أدرى لماذا أطوى نفسي على دوامة من الأفكار ، أنه شيء مبهم غريب ، غريب غير واضح أو محدد ، كأنما تبلور فى نفسي شعور عجيب . هذا المجد الذى أسعى إليه منذ شبابى الباكر ؛ لماذا يتحقق .

الحياة الواقعة لا تحقق الصورة التى تعيش فى الأحلام ، المجد دائما يصارع الحب فى نفسي . ولكن المجد مازال يلهب أعماقى . .

- ٤ -

هذا القطار ، قطار الحياة ، متى يصل إلى الغاية ، وعندما يصل كم سيمكث هناك •

أنه ما يزال يجد السير منذ عشرين عاما ، وفى كل لحظة يخيل إلينا أننا قد اقتربنا ، فإذا ماترفق فى مفازة ، نظرناوحددنا النظر ، ترى هل هذا هو المكان الموعود ! •

هل هو الطريق طويل حقا على كل الناس ، أم على بعض الناس ، أم أننا كلما قطعنا من الطريق مرحلة ، ردتنا الرياح السافية مرةأخرى إلى الوراء ، فعدنا نقطع الطريق من جديد •

أنى أحيانا اضيق بالقطار والطريق • • •

جرت فى نفسى هذه الخواطر وأنا فى القطار ، لست أدرى لماذا أحس بشىء من السعادة النفسية وأنا أركبه فى طريقى إلى بلدى الحبيب •

أنه حب قديم ، كان يملأ نفسى فترة من فترات الحرمان الطويل • كان القطار خلالها يغمر عاطفتى كعملاق ، كانت كل آمالى مركزه فى أن أركبه وانطلق به بعيدا عن الريف • عن الحياة الضيقة إلى حياة الضياء والنور إلى القاهرة

فى الريف كنت أتطلع إلى القطار القادم من القاهرة بشغف . وأنا اتصفح الوجوه . هناك فى القرية البعيدة كنت أسمى أول الليل بضعة كيلوات أسيرها على قدمى لارى القطار . كان عندى مصدر الحياة فى ركود القرية الغارقة فى الظلام ، كنت أملأ عينى منه ، كنت أحس أنه هو الحياة النابضة فى محيط الموت والصمت والحرمان ، فلما وصلت إلى القاهرة وعشت فيها ، بقيت له فى نفسى صورة أحن إليها كلما رأيته أو ركبته . أنه يمثل فى نفسى صورة الغائبين البعيدين !

وللقطار فى نفسى سحر آخر ، فى الأسفار الطويلة ، أنه يعطينى فترة واسعة للتأمل والتفكير والذهاب مع الأحلام كل مذهب ، وأنا أطل من نافذتى على المروج الخضراء ، وأصاحب هذه الترعة التى ولدت على ضفافها فى ديروط . وعشت معها سنوات وهى تمتد إلى القاهرة .. أنها خمس ساعات قضيتها فى نافذة القطار أتأمل وأفكر وانظر بعيدا إلى الحقول الخضراء ، وترعة الابراهمية التى تجاور طريق القطار ، والأشجار على حافتها فى خلال هذه الفترة تقلبت الطبيعة فرأيت الأصيل والغروب والمساء ، وكل له ألوانه ومظهره وجماله .

لقد وجدت فى هذا الجو راحة لاعصابى المجهدة ، مناظر البلاد والطبيعة والريف ولقاء الأهل .. غير أن « القاهرة » ظلت تشدنى إليها . فقد كانت أفكارى تدور حولها ..

— ٥ —

لست أجد شيئا أجمل عندى وأنا اقطع طريقى من الهرم إلى القاهرة في الصباح ، من منظر « النيل » ، انه اليوم أشد روعة وجمالا ، فقد لوحته حرارة الصيف . فغدا أسمراً فيه شبه العائدين من الجنوب .

أنه الفيضان الذى يرتفع به إلى الذروة ، ويصبغه بهذا اللون الأحمر .

إنه النيل الآن فى أوج سطوته وجبروته ، إنه يحمل بين يديه الخير الذى ينثره بعد قليل على أرض الكنانة فيزيدها خصبا وقوة .

أنها هديته التى يقدمها كل عام لا يتخلف عنها ، ولا يتحول . أنه يملأ نفسى فى إعجاب رجل عظيم كريم يبعث الحياة حوله وينطلق من الجنوب إلى الشمال ، ينثر الخيرات فى كل مكان . يمر بمراحل ومناطق وأناس وحضارات ، يرى ويسمع مئات الأقاصيص والأحاديث والرؤى .

أنه ما يزال يقطع هذا الطريق كل عام منذ الوف السنين ، قد ألف الناس والفوه ، وأحبهم وأحبوه ، فهو قريب إلى نفوسهم يجدون فى عبوره لذة اللقاء ولوعة الفراق . انهم يناجونه أحيانا بآلامهم وآمالهم . وكأنه (أب) روحى تلقى إليه الهموم فيصرفها .

لست أنسى ذلك اليوم ، عندما رأيت النيل لأول مرة وكانوا فى بلدنا

يسمونه (البحر الكبير) ويشيرون إليه دائما فى جلال ، ناحية الشرق ، كنت أهابه واخشاه وأربط بينه وبين الشمس ، هذا الاله الشاب المندفع فى طريقه ، فلما اتيح لى أن أراه وهو منطلق فى أناة وجبروت والمراكب تمخر عبابه والناس على سواحله ينعمون به ويفيئون إلى ظله ويقيمون الحدائق ، ويزرعون الحقول ، عندما رأيته خفق قلبى ومضى يحلم ..

له فى الصباح صورة الحنان ، وفى الأصيل صورة الجمال ، وفى الغروب صورة الحزن ، إنه يملأ النفس بالهناء والأشواق ويروع ويأسر ويأخذ بالالباب .

أحببته فى كل مكان ، لأنى ولدت على شاطئه وتربيت فى أحضانه وعندما تضنينى الحياة أهرع إليه ، واقف على شاطئه واتملاه . وأسعد بتلك الموجات المشرقة المتلاحقه . وهى قادمة من الجنوب .

- ٦ -

أيها العام الجديد .

احمل إلى قلبي معك الهناء ، ولنفسي العاطفة ، ولعقلي الفكر ، ولروحي الأمل ، ولأعصابي الهدوء ولجيبي المال . إنني أتطلع إليك في الضياء والنور . أحس بأنك ستحقق لي الأمانة التي انتظرت طويلا فاعط العاطفة سعادتها ، وامنح القلب حياة جديدة وافض على هذا القلم نوراً ينكشف بين السطور ليضيء الطريق .

إن هذه الآمال التي تغمر النفس ما تزال تتطلع إلى الروح الذي ستضمها في غمرة من غمرات الهناء .

إن الزمن يطوي العمر . وسوط الأيام يدفعنا إلى الأمام دون توقف فتى ننظر حولنا لنرى جمال الصبح ، وهدوء الأصيل وإشراقة الفجر .

أيها العام الجديد : امح الآلام . وأزل المتاعب وحل الأزمات واكشف عن الحب في النفوس الحزينة ، واملأ الأرواح من عطر الهناء . وجدد الأيام فلا تدعها تركد . وهز النفس فلا تجعلها تأسن .

إننا نعلق عليك كثيراً من الآمال ونتطلع إليك اليوم وأنت تحمل صفحة القدر

المطوية ونحن منها مشفقين آملين، يتنازعنا الخوف والشوق ، ولكنا نحب فيك يد الله الرحيمة . وفضله الدائم وعطائه المتصل .

هذه اللحظات التى ينتهى فيها العام ، تنكشف الذكرى عن صورة لا يمكن أن تنسى . تلك هى ذكرى مثل هذه اللحظات قبل ثلاثين عاما حيث كنت أعيش إذ ذاك فى إحدى القرى فى أعماق الريف . واحدة من تلك المدفونة النائية عن النيل وعن الطريق الزراعى .

هناك فى غرفتى الصغيرة الوحيدة ، المطلة على أكواخ الفلاحين ، كنت جالسا أكتب كلمات أنفس بها عن صدرى المكروب ، تلك الآمال الجياشة الغامرة التى كانت تفيض به. وأنا أتطلع إلى الأدب والقاهرة والشهرة والمال .

كنت أزاول حياتى العملية فى محيط ضيق جد الضيق .

أما اليوم فأنا أجلس فى غرفتى أكتب هذه الكلمات ولكن أين منى غرفة عشت فيها منذ ثلاثين عاما ، يضيئها المصباح ذى اللمبة (نمرة خمسة) وتغمرها الكتب القليلة الضامرة . أين هذا من أضواء الكهرباء والمكتبة الضخمة .

ذلك الطريق الطويل الذى قطعناه فى صحراء الزمن ، وهذه الأقدام الملمة على الرمال .

كان لى فى ذلك الشتاء القارس حب وقلب . إنه وجه جميل . كان درة القرية

— ٧ —

رأيت الأوراق الصفراء تتساقط اليوم من الأشجار فى الحديقة الصغيرة. حقا ؛ هذه أوراق الريف القابلة . إن الأشجار والزروع تبدو وقد علاها شحوب كالنفس المحبة .

هذا هو الضباب الكثيف يغمر المزارع التى تقع أمام دارنا فى نفس الوقت الذى امتدت فيه أغصان اللبلاب وطوقت الفرنده الواقعة أمام مكتبى بصورة رائعة ، كأنما هى سقف آخر حجب السقف ، ودفع عنا الهواء الذى كان يتدفق من الطاق الواسع . .

أنه مقدم الشتاء . هذا الفصل الذى أحس فيه بالسعادة تغمر نفسى من أطرافها ، فلتصوح الأشجار ماشاءت فان فى القلب ربيع يزرى بالخريف الذى تعرفه الطبيعة .

هل أقبل الشتاء . حقا . هذه هى علاماته ، ما جمل هذه الصورة مع الحب . أن الشبورة تنفذ إلى من نافذة مكتبى من وراء الأشجار .

أنها تملأ النفس بشعور عجيب . لست أدرى كنهه أومداه، الطبيعة صورة شفافة قد حجبت الشمس . وملأت الجسد بالرعدة الخفيفة ، وبدت كأنها الأمال التى تخفى من ورائها الحقائق التى لا تعرف مداها .

كذلك تهتز نفسي وتفيض باحساساتها وأحلامها وأشواقها إلى عوالم لم أذهب إليها بعد . إلى المجهول القصى ، وأنا لا اتصور هذا المجهول إلا مغلفا فى غلاف من الحب ..

أن هذا السكون الرائع لا يعطى سره إلا لقلب خافق ، أن هذه الأمال والأحلام والرؤى لا قيمة لها إلا تكون أطاراً لهذه العاطفة الحلوة التى تأتى مع الشتاء ..

أنني أحس بالحاجة إلى أن انطلق . لقد اجهدنى العمر الطويل وأنا أمضية على مكتبي ، أريد أن أذهب بعيداً . أسافر وأضرب فى الأرض وأضيف تجارب جديدة إلى حياتى ونفسى .

أنى أطلب اليوم « الأبداع » . لقد زهدت من الاجترار .

أريد أن أكتب شيئا جديداً ينبعث من أعماق .

أريد أن أتأمل طويلا فى الحياة من حولى ثم أصورها .

أحب أن أبتدع أدبا جديدا ينبعث منه الحياة .

هذا الجبل الضخم . أننا نقتطع منه كل يوم حجراً ، أنه جبل المجد ، كل يوم نكتب كلمة . أنه جهد ضخم متواصل نصبر عليه ونرضاه ونسعد به وفى كل مرحلة تنظر إلى المرحلة التى بعدها . وقبل أن يتم هذا العمل نبحث عن العمل الجديد

أن عندى هذا الجبل الضخم الذى مازلت اقتطع منه كل يوم حجراً . ترى متى ينتهى . متى يجىء اليوم الذى آرانى فيه أقدم المطبعة فنا جديدا أو عملا كبيرا لم يسبقنى إليه سابق .

- ٨ -

أن قيمة الحياة تزهدنى فى العمل ، وتصور لى المتاعب المبذولة كأنها سراب . أن الحياة لا تعطى الغنى والمجد ألا بعد أهوال ومشقات . بعد أن يبلغ صاحبها سن الشيخوخة . فإذا هو ذهب يستمتع بالمجد ، كانت حياته ركاما وحطاما .

أى قيمة المال بعد أن تعلوالسن وتذهب بهجة الشباب . بل أن صاحب المال فى هذا السن يبدو ضنينا فلا يعرف ولا يجرى ولا يطير . ربما تكون الأحداث قد علمته الرزانه والبخل أيضا . وطوت من نفسه معالم المرح الخاطف والفرح الغامر والذهاب وراء الأحلام .

ولكن يبدو أن هناك أحلام تظل تعيش في أعماقنا طول العمر .

أننى لو سألت عن أعظم شىء أحبه لقلب : أنه « المرح » أنه الشىء الوحيد الذى ينقص حياتى . أحب أن يكون كل ما حولى ضاحكا مشرقا ، أننى أتطلع إلى الفرح العبقرى ..

إن كل جمال يأخذ بلبه : أنه يقف على شاطىء الحياة ليرى باقات الحسن والجمال ذاهبة فى طريقها فيحس لوعة الحرمان تعتصر قلبه ..

أنه يتطلع إلى الجمال ، ليكشف من قلبه الغشاوه ، وعن نفسه الركود ولينفدفع فى حياة متجددة ، وقفت أمس فى الساعة الواحدة صباحا . أمام شرفة منزلى فى هذه البقعة الهادئة الريفية من شارع الهرم . أصغى إلى الصمت الذى إحتضن القرية .

كان الصمت يهوم ، فيبعث إلى نفسى انتفاضة خفيفه ، كان القمر يرسل أضوائه الباهته ، وهو ينحدر نحو الغرب ، والأضواء الخفيفة تبدو من بعيد كأنها آمال عزيزة تشع من قلب مظلم ، طال به أنتظار الحنان .

وبدت النخلة القريبة من مكانى مسامقة أكثر مما هى على الطبيعة ومضيت أسأل نفسى ماذا ينقعها :

وكان الجواب غامضاً :

هل هو الحب . هل هو المجد . هل هو المال . .

- ٩ -

هذه طلائع الربيع أحس بها فى الآمال التى بدأت تنفتح مع براعم الزهر. حقا ؛ لقد كان الشتاء قاسياً عشت خلاله فى ظلال من الآلام والأحزان، ضاقت نفسى بالحياة وتكدست فوق كاهلى المتاعب ولم يكشف الأمل عن بصيص من النور، فى كل طريق أمشى أجد الصخور والسدود. حتى كدت أفقد الأمل فى طلوع الفجر وأشراقه الصباح .

لقد توقفت عن الأنتاج . لم أجد فى أعماق نفسى بسمة أو أشراقة أطالع بها الجمال المبثوث فى صور الكائنات .

كان الحزن يفيض على قلبي. ويصبغ الوجود أمامى بلون حزين .. قاتم. واليوم وقد عاد الربيع ، أحس بأنى أخلق من جديد . هذا الربيع يدير نفسى فى دوامة عاصفة من المشاعر . أحس الوحدة القاتلة فى معترك الحياة المضطرب .

أن الربيع المونق ، والجمال الرائع . وفتنة السماء ، وهدوء البحر . وخرير الماء . ليست كلها إلا أطاراً لصورة .. صورة عاطفة أو إنتصار .

أحيانا تشرق النفس ، فتدق فى أعماقها أنغام عذبة حنون . ثم تتحول النفس إلى الصراع والطراد مع شيء تتطلع إليه ، شيء معروف أو مجهول،

- ١٠ -

ذهبت إلى الريف . منظر الحقول والمروج الخضر ، والماء تجرى فى القنوات من أحب لوحات الطبيعة التى تغذى روحى ، وتفتح أمامى آفاق الفكر . كان معى فى الطريق « المتنبى » ذلك العملاق . هذا هو الريف الحنون الحلو . ما أجمله . أنه يهدى صورة الطفولة . حيث كنا نعيش فى (ديروط) على أطراف الحقول ، ونمضى شطراً من الليل تحت السماء نتطلع إلى نجومها . ونرى الماء وهو يجرى فى القنوات مندفعا إلى الأرض الطيبة فى قوة . .

إن فى الريف معنى السلام . بعيداً عن ضجيج الحضارة المندفعة الصاخبـــة .

هنا نحس بأن الحياة تمضى هادئة كالماء الرقراق . ما أحب إلى من سلام النفس . ما أجمل أن يمضى الكاتب أيامه قانعا راضيا فى ظلال شجرة وارقة . . ومعه قلب يحقق . .

الأرض الخضراء أشبه بالبساط السندسى الجميل ، سنابل القمح صفراء كالذهب .

أبراج الحمام قائمة فوق البيوت .

شذى الزهور وعبير الزئبق ورائحة الأقاحى بين الحقول والحدائق .

ثمار الفاكهة متدلاة من أشجارها ·

الناعورة ترسل صورتها والبقرة المحجبة العينين تدور وتدور، فتنقل الماء من البئر العميق ذى القرار إلى الحقل العريض · الهدوء الشامل والهواء الناعم · والأوراق الخضراء · والفروع المدلاة فى الماء ·

عطات المياة المنشورة فى الفضاء الواسع ، تدق فى سكون الليل دقاتها المنتظمة ·

صوت الناى ينبعث من بعيد كأنما يأتى من فوق ربوة عالية ·

وقفت فوق قناطر ديروط استعيد ذكرى الأمسيات الناعمة المعطرة التى كنت أعيشها فى فجر الشباب ، يوم كانت أحلامى تضطرم بالخيال والأوهام!

أن منظر الغروب هناك على صفاف الإبراهيمية يذكر باحلام غالية رائعة ويثير فى النفس ذكريات الحب والحنان ·

كم هى ساحرة « ديروط » حين يلفها الليل ، هناك على صخرة على شاطىء اليوسفى ، كنا نجلس نتساقى أكواب الصفاء ، ونقص أحاديث الجمـــال ·

أن هذا الغروب يذكرنى باحلامى منذ عشر سنين ، حقا ، كانت رائعة فاتنة ، كانت جميلة متكبرة مزهوة إلى الحد الذى يبهر النفس · ·

الليل ؛ كم ساحر على قناطر ديروط · الماء يهدر وراء القناطر . فينبعث ذلك الصوت الرهيب الجميل · والسماء الصافية توحى بالثقة والاطمئنان ·

والقمر المتألق يرسل أضواءه الفضية واليوسفى والمروج الخضراء تبدو من بعيد وكأنها نائمة بعد جهاد النهار الطويل .

وجلسات الغروب تحت الضفاف الحمراء مع محمد صالح فوق سور ترعة الساحلية تعد من أسعد الذكريات .

ولكن متى كان قلبى معى . .

إنه كان يقفز بعيدا وراء رؤى الحب والمجد .

كم هى ساحرة ديروط حين يلفها الليل .

عندما كان يتحدث عن جمال البناء . والأثاث الموفق ، فى منزله الجديد ، كانت أعماقه تفكر فى شىء آخر . : لو كان لنا أبناء لملأوا هذا المكان ، ولشغلوا هذه الحجرات . ولعبوا فى هذه الحديقة . إن الصورة لم تكتمل بعد .

ما قيمة البيت الجديد الجميل بحجراته الواسعة وحديقته الصغيرة . وليس هناك أطفال .

أما هو فكان ينظر إلى الأمور نظرة مجردة . هذه الطبيعة الجميلة . هذا الهواء ينبعث رقيقا فيملأ نفسه بالرضا ، وهذا الهدوء يخيم على البيت . والسكون الغامر الحلو يمكنه من أن يفكر ويكتب . راضيا مطمئنا . لشد ما يمقت ضوضاء الأطفال وصخبهم ويضيق به . لقد ألفت نفسه هذا اللون من الحياة : الصمت والسلام ! لا بأس من لحن موسيقى ينبعث من الإذاعة ، أو أغنية حبيبة تربط الفكر بالحب . بل إنه ليحلو له أحيانا أن يجعل المذياع قريبا منه وهو يكتب . ويسعد بهذه الأنغام تنبعث إلى نفسه وهو غارق فى أفكاره .

لست أدرى لماذا أحس هذه الأيام بالانطواء . كأنما بى زهد وملل لا أعرف مصدره . من المؤكد أن فى أعماق شيئاً غير واضح . لم تكشفه لى نفسى . ولكنى أحس به غامضاً كأنما هو الغمام الرقيق فى سماء روحى .

لقد تمنيت أن أجعل الصحافة صناعتى . وعاشت هذه الامنية فى أعماق عشرة أعوام ، ثم أصبحت حقيقة منذ عشرة أعوام ، ولكنى ما زالت اليوم أرانى لم أبلغ بها ما كنت أتمناه .

لعلنا نحن أسعد من أسلافنا ، فإن ما نحصل عليه اليوم أكبر مما كان يحصل عليه غيرنا فى مثل عمرنا ..

ولكنى بالرغم من هذا ما زلت أرانى دون ما أعنى .. ودون ما كان يجب أن يكون عليه منذ الشباب الباكر أشق طريقاً عسيراً ، أن الانتصارات التى احرزتها إنما قد اقتطعتها من الصخر . ولقد كنت أعرف الطريق اليسير ولكنى تجنبته لأن نفسى لا ترضاه .

كان يكفى أن يلوذ المتسلق بجناح كاتب كبير ، أو يكتب القصة أو المقالة الفكهة الساخرة التى ترضى الجماهير — ولكنى تنكبت هذا الطريق ورضيت أن أقدم «أدبى» دون شفاعة وبغير أن أتملق القارىء ..

وإن كنت قد حرمت مكانى الحق فى الصحافة فإننى قد استطعت أن أنشر إنتاجى وأطبع أفكارى وأذيع مؤلفاتى . واخلق جوا خاصاً بعيداً عن ضجيج الصحافة أو أهواء الأندية الأدبية .

- ١٣ -

انقضت فترة الانطواء . وبدأت الشمس تشرق . والروح تخرج من شرنقتها التى نسجتها حول عواطفها مدى تسعين يوما أو تزيد .

لست أدرى لماذا تدخل الروح هذه الشرنقة كل عام فى هذا الموعد ، فتفتر وتتبلد وتركد وتزهد فى الحيـاة ، وتضيق بالأضواء والمواكب والصخب والحركة . وتود لو عاشت فى حجرة مقفلة الأبواب والنوافذ لا يصل إليها شعاع واحد من ضياء ..

امر بهذه المرحلة كل عام ، عندما يأتى شهر ديسمبر ، بيومه القصير القمىء ، الذى لا يكاد يبدأ حتى ينطوى . هنالك تنقبض نفسى وتمر بها مرحلة من الضيق والـكآبة والزهد فى الحياة .

لست أدرى ، ترى هو المطر والغيوم والسحاب والأرض الموحلة والليل البارد مصدر انقباضى . عجبا ، لقد كنت أحب المطر والسحاب الأبيض واشعر بالسعادة وأنا اتطلع إلى اليوم المطير ..

لست أدرى لماذا أضيق بالضياء الغامر أو الحب الـكبير . أو الاشراقة التى تغمر النفس .

مهما يكن الأمر فانى حين انطوى وأدخل الشرنقة أقرأ وأطالع وأكتب واجد من الليل الطويل وسيلة للعمل الكبير •

وسرعان ما ينتصف فبراير . وتشرق الشمس، وتنزاح الغيوم والأمطار ••
وأحس بإننى استعيد مشاعرى وعواطفى •

من شرفة نادى الفيوم ، فى صباح باكر من أيام إبريل ، أكتب هذا وأمامى السواقى تئمن ، ما أجمل هذا الصوت الداوى الذى يصل من بين الحقول الخضراء والنخيل العاليـة . وما زال الصباح مشبعاً بالغيوم ، والشمس مختفية وراء غلالة بيضاء من الضباب .

كم كنت فى حاجة إلى أن أترك القاهرة فى رحلة جميلة فى ريفنا أجدد بها النفس بعد أن طال بى البقاء فى العاصمـة ثلاثة شهور منذ عدت من أسوان .

هناك حيث تتكرر الصورة يوما بعد يوم ، ليس غير المراجع والملفات .

ومن وراء ذلك متاعب العمل الصحفى ونفسيات القائمين به . ما قيمة هذا المال الذى يحصلون عليه فى مقابل الأعمال النافعة التى ستبقى وتخلد ، سوف يحصل هؤلاء الزملاء على المال وفيرا ولكنهم لن يخلفوا عملا عظيما .

أومن بأنه لن يصح إلا الصحيح ، ولا يبقى إلا الأبقى ولن أنحرف عن رسالتى فى إيقاظ الأمة العربية ونشر أمجادنا وربطنا بماضينا العظيم مهما كان هذا اللون لا يجد الإقبال ولا يوفر الثراء .

لن يجرفنى أدب الجنس ولا الوجودية ولا الأدب الأسود وسأظل

دائما ابن الأمة العربية أجدد شخصيتها وأدعو إلى المحافظة عليها حتى لا تضيع فى غمار الأحداث .

سأكشف أخطاء الأدباء فى الماضى وخطط الذين يدعوننا إلى أن نفقد شخصيتنا ونتجه نحو الغرب .

سأحمى الركب الصاعد المندفع إلى الأمام دائما من أن ينسى روابطه مع أمجاده وعظمته . باعثا إياها مجدداً لها .

ستزول الأسماء اللامعة البراقة التى تكتسب التفاهات وتحصل على المئات من الجنيهات وستبقى الأعمال الكريمة العاملة فى صمت وهدوء ورصانة ، لا تبتغى الحصول من حطام الدنيا إلا على ما يقيم الأود لتخلف للعربية والشرق آثاراً ماجدة .

— ١٧ —

يوم الخميس ، من كل أسبوع ، هذا يوم أجازتى ، وهو يوم صعود القلعة . حيث اقرأ بعض المراجع التى تعز فى دار الكتب بباب الخلق وخاصة الصحف .

إنها لرحلة شاقة مضنية ، ولكنى أستعذبها ، وأحس بأنى إنما أغرق فى سبيل استخراج هذه النصوص . وربما وجدتنى فرحا مغتبطا ، وأنا أطالع هذه المجلدات من الصحف التى مضى عليها أكثر من خمسين عاما ، إننى أشاهد أصحابها وأعيش معهم ، وأشم رائحتها وترابها .

هناك من النافذة أتطلع إلى القاهرة . هذا المنظر الرائع الذى أود لو لم أكن مشغولا لأواجهه وأعيش معه ، ولكن أين ..

وأنا أود فى هذه الساعات القليلة من التاسعة إلى الواحدة . أن أحرز ما أستطيع من النصوص . فى اليوم الذى يهجع فيه إخوانى أو يتجهون إلى خارج القاهرة فى رحلات يسعدون فيها ، أجدنى هنا فى خضم هذا العمل الذى أخذت به نفسى .. جد سعيد .

— ١٨ —

قابلته اليوم مصادفة ، كان قد مضى على لقائنا الأخير أعواما .. فلما جلسنا نتحدث تجددت ذكرياتنا ، هذه الذكريات التى ذهبت بعيدا فى أعماق الماضى ، عند ما كنت يافعا . كان هو شابا جاء من القاهرة إلى قريتنا ليستعيد ذكريات شبابه بها .

كنا نصفه بخفة الظل وحلاوة العبارة ، وكانت له ألاعيب وأفاكيه وطرائف . وله قصص ما نتذكرها حتى نغرق فى ضحك عميق متصل .

فقد كان مغرما بأن يطلى وجهه بالفلين المحترق ، حتى يبدو عبدا أسوداً ، ثم يدخل إلى الضيوف كأنه خادم نوبى يسليهم ويضاحكهم . أو يدعى أنه قد شرب خمرا ويذهب فى تمثيل دور السكير إلى أبعد حد . وكان له مع النساء فى الريف اسلوب عجيب فى الحديث يدل على خفة روحه ومرحه .

ولقد حدث مرة أن أدخل على سيدة عجوز قريبة له ، قد ضعف بصرها ، وادعى أنه أحد المحضرين . فأزعجها حين أخذ « يحجز » على بعض أثاثها . وبعد أن بلغ فى تمثيل الدور غايته كشف لها عن شخصيته .

لقد عرفته مبكراً ولعله قد حدثنى عن القاهرة حديثا طليا ، ومضى

يفتح أمام عينى أبواب الأمل والمجد . وقد اتخذته دليلا لى ، أكتب له عن ذات نفسى ويكتب إلى .

كانت رسائله إلى رائعة حلوة ، كانت أول ما علمنى أسلوب الكتابة الأدبية وإيراد الطرائف الصغيرة ، والقصص الحلوة . فهــداني إلى الطريق .

فلما بدأت أكتب ، كتبت الزجل ، فلما أرسلته إليه ردنى عنه ، وكره أن أوغل فى هذا الاتجاه ، ودفعنى إلى اتجاه آخر . ولما أحببت أن أقفز إلى القاهرة حال بينى وبينها . وأرسل إلى خطابا مطولا يقول فيه إن من لا يملك فى القاهرة قرشا لا يساوى قرشا .

هنالك بدأت أحول اتجاهى نحو العلم ، وأفهم أن الاندفاع نحو القاهرة تحت بريق الأمل خداع وضلال .

وعشت أحبه كصديق ، وأربط نفسى به كصفى ، وارتفعت قيمته عندى على القرابة وصلة الدم .

ولما صادفته بعض الظروف كان يتخذنى صفيا له يسر إلى بها ، ثم عاشت له فى نفسى صورة موحية لم يغيرها الزمن بل زادها توالى الأيام قوة

وجاءت أيام كنا نتصارع فيها على الرأى ونختلف .

ومع ذلك فإن حبنا ظل على قوته ونفوسنا عاشت صافية وانقطعت بنا الأسباب زمنا ، ثم التقينا فما زادنا ذلك إلا ودا وعاطفة .

ذكرت ذلك كله عند ما رأيته اليوم ، ومضيت أستعرض شريطا طويلا من ذكرياته .

— ١٩ —

رأيت الموت هذا الأسبوع يحلق حول هذا البيت . عملاق ضخم ، لا يستطيع أحد أن يواجهه أو يقف فى وجهه ، تنحنى له الجباه . لا يملك إزاءه إلا السواد يلبس ، والدموع تنهمر ، والقلوب تضج بالألم . والضلوع انطوى على الحزن .

هذا الشاب الذى ذهب وهو فى ريق الصبا ، غريبا ، بعيد عن أهله . يحف موته الغموض . غاز التدفئة إنساب عليه فى الليل فذهب به ، صاحبة المنزل فتحت عليه جناحه فإذا هو مسجى ؛ قد مات .

ومضت الأيام ثقيلة . ميت لم يحضر بعد ، موعده لم يعرف . ثم يعرف الموعد ونرقب الطائرة المحلقة . ثم نذهب إلى المطار نستقبلها ..

المطار فى ظلمة الليل مقبض . الطائرات تنزل وتصعد ، ولها دوى كأنه نواح على ميت . القادمون من الطائرة التى تحمل الجثمان مطرقوا الرءوس . كأنهم يسيرون فى جنازة الشاب الذى حملوه من أطراف أمريكا .

وصل الجثمان فى صندوق . لأول مرة أذهب إلى المطار لأقابل جثمانا فى صندوق . لأقابل ميتا . منذ أسابيع قليلة كان مسافرا من هذا المطار نفسه يضحك ويؤكد أنه سيعود قريبا .

وها هو عاد كما أكد . وبينما تعصر القلوب الآلام والأحزان هوى أبوه المريض المسجى .

هذا الذى لم يسمع نعى ابنه شفاها ، وأن كان عاشه بين الحلم والحقيقة. كان فى غرفته البعيدة يسمع أصداء الصياح والبكاء والنحيب . واسم ابنه يتردد ، يسمع القرآن ، ويرى الداخلين إليه فى ملابسهم السود ، كان يبكى ولا يمسح دموعه فقد توقفت يداه عن الحركة .

قطعا ، لقد أحس بالصدمة وأن لم يسمع بها صراحة .

ومات ، ذات مساء فجأة ، دون أن تدل أى علامة على قرب الموت . ومضينا نودعه . وذهبت هذه المرة إلى القبر ، شاهدته وهو يفتح، والجثمان يدخل ، ثم يغلق عليه ، وينفض الناس ويترك فى وحدته .

واهتزت مشاعرى للمنزل الأخير . ماذا فى هذه الحياة بعد ذلك التعب والعمل والنصب . إلا هذا السرداب المبنى بالحجارة البيضاء ينزل إليه على درج ، ثم يغلق عليه بعد أن يودع الأرض . وتوضع المونة . ثم يقف الشيخ ليقرأ القرآن ، ويحدث الميت عن الملائكة القادمين يسألونه عن دينه وعقيدته وبلقنة ما يجيبهم به ، ثم يفرغ المكان ويركب الجميع سياراتهم ويخلفونه وحده . لا أنيس ولا نور يضىء اللحد الضيق إلا العمل الذى قدمه ..

ولكن الموت ليس فى الحقيقة إلا سفر طويل ، وليست الحياة إلا محطة انتظار . بعضنا ينتظر فيها قليلا ، ويركب أول قطار ، وبعضنا يترقب ثمة ، ولكننا جميعا سنركب القطار إلى المحطة الأخيرة ..

- ٢٢ -

كان ذلك منذ ثلاثين عاما . كان طفلا صغيرا فى المدرسة . أنه يوم لا ينساه • لقد انطبعت ذكراه فى نفسه فلا سبيل لأن يزول • لقد سافر لأول مرة مع مدرسة « أمين أفندى » إلى تل العمرانة .

ركبنا القطار من بلدنا « ديروط » إلى ديراموس ثم ركبنا الحمير متجهين شرقا حتى وصلنا إلى المدينة التى أطلقوا عليها « هيرموبوليس » حيث عاشوا يوما كاملا فى كهوف منحوته فى الجبال على هيئة معابد يشاهدون رسومها ويسمعون قصتها ؛ قصة « أخناتون » الأمير المصرى الذى دعا إلى الله • وهجر طيبة • وأقام هذه المملكة الضخمة التى لم تعمر طويلا • وانطوت صفحتها بعد سنوات قلائل حيث عاد الكهنة مرة أخرى إلى الجنوب •

منذ ذلك اليوم انطبعت فى نفسه صورة ضخمة وهائلة لبلاده • لماضى مصر الضخم العميق الذى عرفه من بعد وقرأ فصوله ورأى آثاره وأحبه وازدهى به مفاخراً • •

فقد عرف أن أجدادنا الفراعين قد خلقوا روائع خلدت على الزمن •

وعاش أكثر من ربع قرن حتى جاء اليوم الذى أتيح له فيه أن يذهب

إلى الأقصر • ويقطع هذه المسافة الضخمة من القاهرة فى أيام حلوة من ربيع عام ١٩٥٥ •

ولقد أمضى بضع ساعات يرقب مطالع الأقصر ، كان حفيا بأن يرى هذا المنظر العجيب • لقد عاش يحلم بزيارة الكرنك فلم تتح له إلا بعد هذا الزمن ، فلما أقترب من الأقصر وقف فى نافذة القطار رغم الأعاصير والأتربة التى يحملها القطار السريع يملأ ناظرة من هذا الفضاء ليرى قمة من القمم سوف يقع عليها نظرة أول ما يقع •

وصدق حدسه فقد رأى قمة الكرنك قبل أن يصل إلى الأقصر ، فلما نزل إلى المدينة لم يجد فى واجهتها صورة (طيبه) ، هذه المدينة التى عاشت فرونا مهداً لحضارة عظيمة وملك ضخم • وسلطان قوى كان يتحكم فى هذه المنطقة من جنوب السودان إلى شمال الشام •

ولكنه ما كاد يتجه ناحية الغرب قليلا حتى رأى منازل الفراعين وديارهم • ورأى النيل يفصل بين مدينة الأحياء ومدنية الموتى •

ليلة عيد ميلادى (الواحد والأربعين) كنت أبيت فى مرمى مطروح. أول ما فتحت عينى عليه : البحر ، وهو يصافح شواطىء هذه المدينة الجميلة ذات الشواطىء البيضاء الرمال .

حققت هـــذا العام كثيرا من الآمال التى عاشت حلما فى مطلع شبابى . وأحست النفس لأول مرة بشىء من الراحة . لقد خف الجرى ... بدأت أمشى ، لا أحس بالكرابيج تفرقع خلف ظهرى ، كنت أنهج من قبل من سرعة الجرى . كنت لا أحس الحياة حولى ولا اتطلع إليها . كنت أعيش باحساس عجيب ، هو أننى متخلف عن الزمن الطبيعى. وأن على أن أسابق الزمن .

كنت أعمل بحرارة واندفاع لا عوض شيئا ما فاتنى حتى أصل فى موعدى، كنت أرى زملائى وأخوانى يسبقوننى . كنت أرى الذين جاءوا بعدى يتقدموننى . كنت أعرف أن وسائلهم لا تصلح لى . وصممت على إلا أصطنعها. ولكنى لم أرض التخلف وانف فى الطريق هازئا ساخرا .

كنت أنظر إلى الأمر فى جد وصرامة . و كنت أعامل نفسى فى قسوة . كنت أحس أننى تأخرت فى الريف عشر سنين فلا بد من مضاعفة العمل، ولكنى أحسست بعد هذا العمل أننى فعلا قد تقدمت وحققت بعض النصر.

ولكنى حين أطمأننت لم يحملنى هذا على التوقف ، بل دفعنى إلى التعمق • رأيتى أريد أن أصنع شيئا جديد ، أحسست بأنى فى حاجة إلى التجويد • لقد كنت أسرع فى العمل لكى أغطى المسافات الضائعة •

كنت أنظر إلى الكم • أما اليوم فإننى بدأت أنظر ألى الكيف • كان لارتفاع السن أثره فى الاناة • الرغبة فى التجويد • الاتجاه إلى العمل الكبير •

ولكنى مع ارتفاع السن مازلت أحس الحاجة إلى الانطلاق •• أنها دعوة تلح على منذ سنوات • تطالبنى بأن أهرب • بأن أهجر مكتبتى هذه وانطلق •

تطالبنى بأن أندفع فى خصم الحياة باحثا عن الضياء الذى يملأ القلب • أنى منذ ثلاثة أعوام قد تجمدت حول المشاعر القديمة • كأنما أعيش على الذكريات • أنى أريد أن أوقظ الشيء الذى مات •

لماذا لا تكون يد الله الجانبة هى التى صرفت عنى هذا الشيء الذى أتطلع إليه • لقد تعودت أن اتلقى مثل هذه الهزائم بالرضى العميق • وسرعان ما يقفز إلى خاطرى الأحساس الأكيد بيد الله الجانبة التى تدفع عنى دائما وتذود ••

لقد تعودت أن أرقب عطاء السماء • هذا الذى يأتى على غير ميعاد • فإذا ما جاء كان أقوى وانفذ وأعمق من السراب الذى نجرى وراءه • اننى أتوقعه • وأن لم يكن ثمة ضوء له فى الطريق فإنه يبدو فى اعماق النفس وأن لم يبدو شبحا على الطريق •

— ٣٠ —

ما أشد حاجتى فى خلال هذا العمل المتصل أن أكشف الأوراق من وجه روحى بعد أن غمرتها أكداس الورق، تراني احب هذا الجو، أم أنني أهرب منه.

أن هذا المجهود الذى بذلته فى السنوات الأخيرة ليس له تفسير إلا أننى أحاول أن أدفن رأسى فى الرمال .

أو أضع الضماد فوق الجرح . أريد أن أنسى . أريد أن أسلو . أريد أن اباعد بينى وبين الحقائق .

أن فى أعماق نفسى صراخ عنيف . هناك دعوة ملحة تطالب باللقاء مع الإنسان الذى غيبته أحداث الزمن وراء الحجب والحواجز .. أنه قد اختار رفيق زمانه بعد أن انتظر عشر سنوات .

ولكن مالى وماله . لقد نفضت يدى منه منذ طويل . وذهبت فى طريق آخر بعيد عنه .

لقد أسرعت فحجبت قلبى فى أتلال من الأوراق . وسيأتى اليوم الذى أقول فيه أن هذا الإنتاج العظيم إنما جاء نتيجة لازمة عاطفيه . ولن يصدق الناس .

أن أيام الشتاء تقبل ، والغمام الأبيض يملأ السماء ، ويتراءى من وراء النوافذ الزجاجية البيضاء ، كأنما يخفى وراءه ضياءاً ونوراً . ونحن نستعجل هذا الضياء فقد طال بنا الطريق .. فى الصحراء الموحشة سنوات، ما من كوخ أو كوه نور فرحنا بها إلا تكشفت من بعد عن سراب .

متى يشرق الفجر . متى نصل إلى الواحة ..

- ٢١ -

فى صبيحة العيد ، تشرق على النفس معانى الإحساس بالمشاعر الروحية الغامرة ، الفجر المضىء ، كلمات الله . أشراقة الصباح . خفقات قلوب الملايين ، وهى تزأر مرددة اسم الله ، متجهة إليه ، متطلعة إلى رحمته .

هذه المشاعر الروحية لا يمكن أن تموت أو تنتهى ، أو تغيض . مهما جرفتها الحضارة الحديثة . وحاولت أن تغطى عليها أو تقلل من جيشانها .

هذه القلوب التى تحقق باسم الله وتتجه إليه فى هذه اللحظات متطلعة إلى رحمته ورضوانه . وقد انقضى رمضان منذ أمس ، وأزمع سفرا طويلا . بعد ليالى حلوة ممطرة ، عامرة ، بالدعاء والسجود والذكر . وقد طافت مواكبة وطبولة ، وإضاءت أنواره ومصابيحه ، وغمرت البهجة امسياته ، وانطلقت مدافعة ، وقامت أفرانه ، وجرت مباهجة ، تغمر الليل كله حتى مطلع الفجر ، فإذا أشرق ، انقطعت عن الطعام والشراب . وأمضت يومها رابضة إلى المساء حتى يضرب المدفع ، فتخلى بينها وبين متاعها .

تلك أيام تعود من عام إلى عام . تطهر النفس ، وتصحح البدن ، وتكشف للقلب عاطفة ، وللروح اشراقة ، تعطى عشرات الأمثلة فى الحركة والرحمة والسمو ، وتجدد الأعماق التى ألفت . الأوضاع الرتيبة الآسنة عاما كاملا .

فإذا هى تتحرر من قيودها وأوضاعها . وتشق طريقا طويلا ، تجرى فيه مجرى المجاهدة بعد الانطلاق ، والقيد بعد الحرية ، وتواجه معانى الصبر والبذل والتضحية ..

وبالأمس والساعة الثانية عشرة ، كانت شوارع القاهرة عامرة بعشرات من الناس ، أباءا وأطفالا ، ورجالا ونساء ، أمام محال الشراء ، الأحذية والملابس ، والاكسيات والأردية ، ضحكة فرحة مستبشرة ، تريد أن تواجه العيد وقد قضت حاجتها لكل طفل ، الأباء — والفرحة تغمرقلوبهم ، — يخرجون ما أدخروه ، فإذا لم يكن اقترضوه ، ليرضوا ابناءهم ، ويشيعوا البهجة فى بيوتهم ، والأمهات .

وهناك فى الجانب الآخر ، بيوت تمضى أيام العيد ولياليه فى دموع وبكاء ، أولئك الذين حرمتهم الاقدار أباءهم ، أو عائليهم .. أو قعد بهم الفقر عن الجلباب الجديد واللعبة الصغيرة ..

وتلك هى الحياة ..

- ٢٤ -

هل يستطيع المرء أن يختار لنفسه الطريق ! هل يستطيع المرء أن يحقق لنفسه ما يريد . ربما كان الشيء الوحيد الذى اتطلع إليه الآن هو « تأكيد الشخصية » .

منذ أمد طويل لم أكتب فى الصحف ، كتابات مستمرة متصلة ولهذا أثره فى تغطية الاسم بركام من الخمول .. ولكن هل هناك صحيفة تقبل خواطرى الجادة .. وأفكارى البعيدة عن أدب الساندويتش ..

لقد أصبحت الكتابة اليوم مجموعة من الخواطر الخفيفة المهلهلة التى لا تحمل فكرة ولا هدفا ، ولا تدفع الحياة الفكرية والإنسانية أى خطوة إلى الأمام ..

هذا التطور فى الصحافة .. اقف أمامه موقف الحائر ، لا استطيع أن أكتب مثل هذه السندويتشات التى تحمل الطرائف والأهواء . ولذلك فأننى لا أصلح لأن اجرى فى هذا المجرى .

ويجب أن أخضع اليوميات لمذهبي ولا أخضع أنا لهذا المذهب .

... أن عملى فى الصحافة قد انحرف بى من الطريق الذى كان يجب أن أشقه فعلا . والذى بدأته أولا فى صحيفة ما ثم فى « الزمان » ..

وعيبي هو غروفى عن الدعاية لنفسى . لم أنشر من مؤلفاتى هذه ما هى أهل له . لم أخلق صداقات لهذا النشر . والكتابة النثرية الآن لا سوق لها ولا نضير . حيث غلبت عليها القصة التى أصبح كتابها نجوما . ودخلت فى كل ميادين الصحف وأصبحت لها كيانا ضخما .

وفى غمرة المشاغل المتكاثفة . والصراع الضخم، حول المجد والمال والحب حيث تتشابك المسائل ... فى هذه الغمرة : أذكر « الموت » باشفاق عجيب ! يوم يأتى فجأة . فلا يدع لنا فرصة لأن نخلص هذه الخيوط المترابطة مع الناس أو نقطعها ..

أنه أمر جبار . يصدع له كل حى . ولا يقوى إنسان على رد ندائه .. أو تأجيله . هذا النداء الذى لا نعرف متى أبانه وأوانه .. أنه سيأتى لحظة ما — يقينا — فيصرفنا عما نحن فيه ويردنا إلى حياة أخرى ..

إذن ما أتفه هذه الحياة وما أتفه مطامعنا فيها ..

- ٢٧ -

هى امى الروحية .. هكذا أراها الآن وأحس بها . لقد كنت أعنى أن أحبها وأعيش لها هى امى وإن كان فارق السن بيننا ليس كبيرا .. هى المرأة الأولى .. وربما الأخيرة - حتى الآن - التى؛ فهمتنى جيدا ، ربما فهمتنى كما أفهم نفسى . هى المرأة التى آمنت بكفايتى .. وترانى على البعد مثلا :

وهى التى دفعتنى إلى الأمام فى قوة . وشجعتنى على اقتحام الحياة ، فإذا ضاقت بى الدنيا رجعت إليها ، حيث أجد عندها هذه العاطفة الثرة الضخمة .. وأحس بلهيب روحها وهى تقول لى : إلى الأمام .. وتشير باصبعها نحو القمة تدفعنى نحوها .

أنها امى الروحية .. هل استطيع أن أوفى لها بعض مالها عندى من ديون .. لن أعرف قدرها الآن . فأنا فى غمرة الصراع والأغراء والجرى وراء الأوهام لا أجد السبيل إلى معرفة فضلها وأثرها .

ربما فى المستقبل أستطيع أن اصنع لها شيئا ، انها تتابع خطوى بدقة ربما تمنيت يوما أن تكون لى ، وتمنت ، ولكنها فى العالم الواقع ليست لى ، لذلك فانا ارق عن التطلع إلى مافى أيدى الغير ، يكفى أن أجدها اما روحية أو اختا كبرى ، أن قلبى لايستطيع أن يؤمن بالشركة أو العيش على اطراف حياة الاخرين ، أو التطلع إلى ما يملكه الناس ..

- ٢٨ -

• صداقات صامتة . نجدها دائما فى الترام .. نشاهد الناس حتى لقد صاروا جزءاً من برنامجنا اليومى ، نراهم فى الصباح يقرأون الصحف وفى المساء وهم عائدون إلى البيوت ..

هناك أفراد نحس أنهم أصدقاء لنا . دون أن نتبادل كلمة واحدة : نسمع أحاديثهم ومشاكلهم . وهم يستعرضونها . زوج وزوجته . فتاة وخطيبها ، أن الواحد منهم ليدخل الترام فأحس بأنى أعرفه وأعرف من أموره — ربما — ما يجهله من يعيشون معه تحت سقف واحد .

كان الجسد محجوزا فى البلد الغريب . ولكن روحى كانت تحلق بعيدا، كانت الصحراء الواسعة الشاسعة تملأ الأرواح بصورة طليقة محببة . وكان الإيمان بالله يدفع عن الروح آلام الغربة .

وصهرت الغربة النفوس فزادتها قدرة على فهم الحياة ومرونة على متاعبها . ومصابرة لبأسائها و آلامها .

أحببت الصحافة من كل قلبي وضحيت كثيرا حتى حققت أملى فى العمل بها . كان « الفكر » فى دمى . منذ تفتحت عيناى على الدنيا . وأنا شغوف بالورق والصحف والمحابر والأقلام ..

وانتقلت من جو الريف الخانق . إلى جو المدينة الناعم ! كان له أثره الواضح فى اتجاهى . فقد دفنت الأمل فى نفسى طويلا . وحرصت عليه وبقى فى أعماق جذوة لا تفنى . فكان إقبالى عليه أشبه بالاندفاع . وأضافت الغربة إلى نفسى تجارب عمر كامل . وعلمتنى ما لم أكن أعلم . علمتنى كيف أعشق الحرية وأحرص عليها بالوجدان والاعتدال والحكمة . كأنما كانت الحياة محجوبة . ثم تكشفت لى . وتبددت فى غير ما قيد . فهمتها على وجهها الحق . وانزاحت عن نفسى ووجدانى الأوهام التى كانت تساورها ...

ما مررت بحدائق القبة إلا وذكرت صديقنا عبد الحميد قناوى . وذكرت اللحظات الأخيرة التى قضيتها معه قبل أن يموت بأيام ..

كانت ابنته الصغرى ، التى فى سن الثالثة تقول له أنها تريد أن تذهب إلى المدرسة . وكان وهو مريض يحس بالقلق ، . كأنما يريد أن تكبر هذه الفتاة قبل أن يذهب . وهذا خطأ الزواج المتأخر . لقد تزوج بعد سن الخمسين وبات يستقبل حياة طفلته وهو قلق يود لو أن يتاح له أن يأخذها بيدها إلى الأمام .. ولكن القدر كان له بالمرصاد ..

أنه كان يقرأ لنا لوح القدر ويدلنا على المستقبل . ومع ذلك فقد عجز عن أن يعرف مستقبل نفسه . أنها سخرية القدر .. تعطى له أسرار الناس ولا يعرف سر نفسه ..

عاش عبد الحميد بين الكواكب والنجوم . عنده الألوف من الكتب والمجلات عن هذا العلم . كان غارقا بينها يريد أن يخرج منها علما .. ولكن القدر كان وحده أكبر من الكواكب وأسرارها .

وذكرت .. فى مجال الموت على أحمد ... الذى عملت معه فى بنك مصر ، أياما ... هل أذكر خيره .. أم شره ، لقد كنت أبغض فيه كبريائه

وأجب جرأته .. لقد اعطانى يوما مبلغا من المال من خزانة البنك دون إيصال لادفعها فى ملة المت بى ..

وأذكر أعصابه ومتاعبه وكيف ظل ستة عشر عاما دون أن ينجب ، ثم إذابه بعد أن بلغ الخمسين تولد له طفلة جميلة .. ويرق إلى منصب كبير لقد إعطاه القدر عشر سنوات من السعادة ..

وذكرت عكوش هاشم .. كنت أعرفه منذ الطفولة .. كان يمر أمام منزلنا فيغمرنى بقطع الحلوى وأنا طفل . وفى كل يوم كنت انتظره . واهدانى مصحفا وأنا تلميذ .. ثم عرفته بعد أن كبر وكبرت ..

وكان معى لطيفا وكنت له محبا .. لقـد خلف الدنيا مع غناه دون أن يترك خلفا له ..

- ٣١ -

القاهرة : فى الصباح الباكر : جميلة وهادئة . كان الظلام لا يزال يغمر الأحياء . وأضواء الصباح تلتمع وتزحف لتطرد آخر خيوط الليل . بائع اللبن على عجلته يجرى إلى الأحياء .. حامل الخبز يحمل فوق رأسه طاولة الخبز الساخن . والبخار يتصاعد منه ، عربات التاكسى واقفة فى أوائل الشوارع . وسائقوها نائمون داخلها فى انتظار المتعجل الذى يصعد إلى العربة . بائع القمح المسلوق يوقد تحت إنائه . ويعد الأطباق والأكواب والملاعق ..

ورفعت رأسى إلى النوافذ ، كلها مغلقة مظلمة . إلا نافذة أو نافذتين فى العمارات الضخمة . لابد أن فيها رجل عجوز يسعل ، أو ذاهب لصلاة الفجر .

العمال يسيرون بسرعة إلى مراكز تجمعاتهم . كانت السيارة تنطلق بنا ونحن نتحدث .. ذكريات مختلفة تتردد على ألسنتنا ، كان الصباح الجميل لم يشرق بعد عن شمسه . والغيوم تملأ صفحة السماء .. والشبورة تغطى الطريق كله ..

كان منظر الحقول والندى فوق أوراق الأشجار والضباب ، كل هذا يبعث فى النفوس شجا عجيبا . وإحساساً غامضا ..

ما أظن أن هناك شيئا أجمل فى نظرى منه . إننى أحبه ، وقلبى يخفق له أينما لقيته . واتمنى لو أتيح لى أن أحصل عليه ، إنه هو: الورق الأبيض تحمله العربات إلى المطابع ..

إنه يتصل فى نفسى بذلك المكتوب الذى مازال باقيا فى أدراجى ، هذه المؤلفات التى مازالت حتى الآن لم تطبع .

الورق، إننى أحبه ، ولا أضيف إلى منظره منظراً يملأ روحى بالعاطفة، كمنظر المطبعة وهى تتحرك . وهى تطبع . وتخرج من أحشائها الآثار المكتوبة وقد أصبحت مطبوعة .. أصبحت قوى من الحبر والورق ..

إن إنتاجى الذى لم ير النور هو الذى خلق لدى هذا الشعور ..

.. لقد ودعت أمس نهاية العام الأربعين من عمرى ودخلت فى العام الجديد ، هذه الأعوام الماضية خلفت وراءها جالا وصدى فى النفس .

الحياة المتشابهة المملة أورثت الروح شيئا من الانقباض والانطواء .

إن النفس تود أن تتفتح على صورة جديدة من حياة خصبة فيها دفء الروح . ورضا القلب . ليس شىء يرتجى كالحب، بعد عام من الجفاف الروحى ، لم أعرف منه غير حطام الأحلام العاثره . وبقايا الأوهام والأمانى .

إننى أحس بأن العمر ينتصف . إنه يدفعنى إلى أن آخذ حق المضيع وأن أبدأ حياة جديدة . كثيرون بدأو حياتهم الحقيقية بعدسن الأربعين . واليوم أحس إننى لم ألامس الحياة . كل ما مضى كان تحضيرا، واستعدادا

كان تمهيدا ومقدمات . كان عيشا على هامش الحياة . ولعبا على شاطئها ..
لماذا لا نندفع إلى غمار البحر ، لنصارع الموج . لماذا لا نخرج من البوتقة .
لماذا لا نقتحم المجاهل ..

لأدع القلم لحظة ، لأتجه إلى القلب الذى شردته عوامل الظمأ .
لأرضى هذه النفس التى جفت ينابيعها . لأحاول أن أجلو الصدأ من
حياتى المتشابهة الراكدة المملة . أريد أن أصنع هذه الحياة التى تعطينى
زاد نفسى .. أعمر هذا الجانب الذى غشاه العنكبوت وتراكمت عليه
طبقة آسنة من الطحالب .

— ٣٣ —

كنا عائدين .. الغروب يكسو الدنيا بسحب الظلام الخفيف . العربة الفارهة تقطع الطريق فى سرعة . والنفس ما زالت تعيش فى الصور والمعانى التى شاهدناها فى إنشاص والفاروقية ..

الصور . الناس . الطعام . الأشجار .. بساط الأرض الأخضر وترعة السويس والقهبية الرابضة .. وما أن هلت معالم القاهرة حتى سرت فى النفس رجفة خوف ورعدة لقد أحسست بأنى أعود مرة أخرى إلى الحياة بمتاعبها وهمومها وما ينتظرنى فيها من مسئوليات وديون :

لقد خلقت لنفسى كل هذه المتاعب . عند مالحت الطريق إلى القاهرة عاودنى التفكير فى هذه المتاعب . ما أشقانا بالحياة نطمع فيها ونريدها متاعا وهناء وجمالا خالصا .. ، ولكن ، مادون هذه المطامع أهوال ومتاعب كثيرة ..

ماضرنا لو عشنا فى الحدود القليلة اليسيرة وتركنا الغد لله ..

* ما أجمل يوم أمس .. الباخرة محاسن فى النيل تسعى وفوقها هذا العدد من الاوانس والرجال إلى القناطر الخيرية فما تـكاد تلقى مراسيها ساعة وبضع ساعة حتى تعود مرة أخرى إلى القاهرة .

البحر جميل . والوجوه كلها ضاحكة . وجوه من مصر ، من سورية. كان هناك وجه واحد ، سيطر وامتلك القلوب • هادىء • صامت • لم يشترك فى الغناء الذى ظل لا ينقطع أكثر من ساعة • ولم يذهب شمالا ولا يمينا مع تمايل الريح أو تحول الشمس ..

وقطعنا الطريق الطويل من القناطر إلى المتحف على الترولى ... هناك وجدنا الحاوى .. كان لطيفا • إنه يقيم أمام المتحف منذ سبعة وثلاثين عاما • معه أدواته مرتبة فى انتظار الزوار • فوطة ، عصا ، ثلاث كوبات • طبلة • هذه أدوات الحاوى • ومعه أيضا الـكتاكيت •

وعدنا إلى المركب التى أقلمت بنا • كان طريقنا سفرا طويلا فى عالم النفس ...

- ٣٥ -

مات القط « سامح » اليوم بعد أن دهسته عربة سريعة أول أمس ، وهو يعدو فى الطريق من الطوار إلى الطوار .. وحزنت عليه عند مارأيته ميتا فى الصباح وقد صرعه الموت ففتح فمه بصورة أليمة . وبكت فائزة ابنتى عليه ، فقد كان لطيفا يتمسح بأرجلنا ونحن فى حجرة المائدة وينام فى أحضاننا ، وفى الليل : كان يأتى إلى فراشنا ليدفىء نفسه ، وهو يتلو أوراده الطويلة ..

أما أمه فقد كانت تبحث عنه هذا الصباح ، وهى تصرخ فى انزعاج . تذهب هنا وهناك وتدخل وتخرج حائرة .

حقا ؛ إننى أحس الليلة بأننى قد افتقدت صديقا عزيزا ، كان يؤنس وحشتى فى هذه الساعات من الليل عند ما ألتقى بكتبى وأقضى بمفردى هذه الساعات .

ترى : هل لهذه الحيوانات نفوس مثلنا تعرف الود وتحب وتصادق .

- ٣٦ -

لا زلت أذكر إلى اليوم كلمة صغيرة ما تزال ترن فى أذنى منذ كنت طفلا .. دخلت مكتب الدكتور ابراهيم عبد الله سليم رحمه الله .. هذا الطبيب العملاق ، وكان معى أبى وخالى .. فلما رآنى قال لى بحماسة وعنف « ارفع رأسك » ..

كنت أمشى منحنيا ، خفيض الرأس ، من أثر التربية القديمة .. تربية الخوف والتخويف .

وما زلت حتى الآن أحس بأننى فى كثير من الأحيان فى حاجة إلى أن أسمع صوت الدكتور سليم يدوى فى أعماق « ارفع رأسك » .

لقيته الليلة لأول مرة .. وما أظن إنى أنساه .

كان مضجعا على ظهره وفوق ساقيه أكداس من الوسائد .. وظننت أنه مريض أو أجريت له عملية ما .. أو أنه من الموضوعين فى الجبس لأمد من الآماد ..

ولكنى دهشت عند ما قال لى : لعلك تظننى مريضا .. أنا منذ ثلاثة عشر عاما مستلق على ظهرى ..

رأيت فى وجهه إشراق وسمعته يتحدث فى حيوية . هذا إلى جمال واكتمال رجوله .. ودهشت وحزنت وذهبت أفكر بعيداً ، بعيداً جداً ..

وقلت كيف استطاع أن ينام على ظهره ثلاثة عشر عاما ، كيف احتمل، وكيف هو ما يزال متشبثا بالحياة فى قوة ، يريد أن ينتج ويكتب ويؤكد شخصيته ..

وقلت فى نفسى .. هل أحب وكيف يحب . إنه فى حاجة إلى هذا القبس من الضياء ، شريطة ألا يكون إشفاقا، فما أكره أمثاله للاشفاق والعطف . إنهم يسيئون الظن بالحب ، ويتشككون فيه . إنهم يريدونه خالصا من شوائب الرثاء . وقلت فى نفسى : لعل إشراق نفسه هذا مصدره هذا الحب الذى يعيش فيه فعلا ...

أمضيت يوم شم النسيم جالساً على مكتبي في المنزل . لم تكن لدى تلك الرغبة التي تدفعني إلى أن أشارك فيه . كانت كلمات مصطفى صادق الرافعي لا تزال في أذني : إن هذا اليوم لا مكان له إلا البيت : كان قلبي نائماً . وعاطفتي خاملة . وفي نفسي حزن عميق يملأها بالجمود . وفي الأصيل خرجت مع ابنتي الصغيرة حيث جلسنا تحت أقدام الأهرام .. ومضينا نتطلع إلى جموع الناس الذين جاءوا يختمون يومهم الحافل هناك ..

وشهدت مغيب الشمس خلف الهرم ، ثم عدت أدراجي إلى مكتبي ، وأوراق ، هذا المكتب الذي ما يزال يربطني إليه بقيود حديدية منذ عشر سنوات ويدفعني إلى عمل كبير ، ويحول بيني وبين المتاع الذي شاق روحي وبدا كأنه غريب عني ..

لشد ما أحببت أن أغادر مكاني إلى حيث أرى الحياة . وأغامر في ميدان الجمال والفن .. لقد كادت روحي أن تصيبها شيخوخة مبكرة لشد ما أحب : المرح والضحك والمتاع الروحي الخالص بعد أن أجهدتني الحياة وسحقت أعصابي .

أليس شم النسيم هو بداية الربيع ... ، هو كذلك ولكن نفسي مغلقة ، كالبرعمة ، وأسائل نفسي متى ينتهي هذا الركود في حياتي ..

- ٣٩ -

مدرسة مصطفى كاشف .. لازلت أذكرها ، المدرسة الأولى التى عشت فيها أول أيامى ، وتفتحت فيها نفسى على العلم والتعليم ، وضربنى مدرس الحساب الشيخ عبد الكريم ضربا مبرحا لازلت أذكره وأتحسسه على أكفى فى أيام الشتاء ، ولو عرف الشيخ عبد الكريم إنى أصبحت من المحاسبين وإنى عملت فى بنك مصر عشر سنين كنت خلالها أدير عمليات حسابية لا يعرفها هو ، لدهش ..

وما زالت مدرسة مصطفى كاشف قائمة فى مكتب ديروط ، يذهب إليها أولاد أخى .. وأحس وأنا أمر بها بهذه الرابطة القائمة بينى وبين أستاذنا عبد الحميد أحمد عثمان الذى وجهنى إلى المطالعة والأدب وغفر الله له يوم كان يدعونا أن نجلس فى حجرته صباحا لتجتمع علينا البرافيت ويتخلص هو منها .

— ٤٠ —

أذكر الليلة صديقى « طه » هذا الذى أحببته من كل قلبى، فقد كان صديق شبابى . لقيت منه الود الخالص والحب صافيا صادقاً ، خلال تلك السنوات العجاف التى قاسينا آلامها سويا .. يوم كنا محبين عاشقين نقضى الليالى : ليالى القوصية الممطرة ونحن نستعرض تلك الذكريات الحلوة على ذلك الطريق الزراعى الطويل الممتد بين البلد والابراهمية ..

لا زلت أذكر تلك الخطابات الحلوة التى كان يقرأها لى ، كانت تصور نفس شاعره صادقة الحس ، عميقة الحب .. غاية فى قوة الذات ويوم سقطت من النافذة ، وفقدت الوعى ، حملنى طه إلى بيتنا فى ديروط . لك الله يا طه ؛ كم لك على من أيادى .

كنا نخرج فى الصباح الباكر ؛ فى الربيع إلى الحقول نوغل فيها ونستجلى الطبيعة . ونقطف الندى من فوق أوراق الشجر لنغسل به عيوننا ووجوهنا .

كانت أياما قاسية مريرة مرهقة ، كان طه يطهو لنا الطعام ويحمل لنا من من ملوى من عند تلك السيدة الطيبه ، امه وامنا ، افراج الدجاج وطواجن الحمام .

إن هنـاك سحابة من الملل تغمر آفاق روحى . لا أحس بالجمال ولا بالهناء ، إن نفسى تذهب وراء المجهول البعيد . ويلح على ذلك العمل الذى توقف فى منتصف الطريق .. المطبعة ، منذ ستة شهور وأنا أ كافح من أجلها ، إن الديون تـكاد تصرعنى . وأنا أحاول مرة هنا ومرة هناك وقد جارت الديون على مصاريف بيتى .. ولـكن بوادر الخير تقترب وخيوط الفجر تظهر فى بطء ..

إن « الـكتاب » عندى حـلم ضخم . فتحى رضوان سألنى فى حفل الأزهر : أين إنتاجى ، عبد الـكريم جرمانوس هنا وهو يسأل عنى .. كيف أقابله وقد توقف إنتاجى سنوات حتى كاد الناس ينسوننى .. إن إنتاجى هذا الذى تجمع يجب أن يأخذ طريقه إلى الضوء ..

- ٤١ -

ودخلت السجن فى سبيل الصحافه والقلم وكلمة الحق ...

وفتح باب السجن واغلق دونى .

ووجدت نفسى فجأه معزولا عن الدنيا .

إنها حياة جديدة ، ولكنها مقبضه ، لقد بدأت فعلا ولكن متى تنتهى ، هذا ما لا يعرفه أحد .

وتذكرت تواً بيت شعر لابن سينا .

دخولى باليقين بلا امتراء   وكل الشك فى أمر الخروج

كانوا يقولون فى الايام الأولى اننا ربما خرجنا قبل أن ينتهى الاسبوع فكنت أفرح لذلك واضيق به .. ذلك لأنى كنت اود أن أؤلف كتابا عنوانه « شهر فى السجن » ..

وسخر منى القدر سخرية مريره فانقطع ما بينى وبن الحياة عاما وشهرين : دخلت فى أواخر عام ١٩٤٨ وخرجت فى اوائل عام ١٩٥٠ .. وامضيت عام ١٩٤٩ كاملا وراء الاسوار فكأننى مررت بثلاثة أعوام هناك .

انها حياة جديده حقا ، بعيده الاثر فى النفس ، لايصل إلى نتائجها إلا من جربها وعاشها . انها ارتطام مع الزمن القوى الذى يعطى الفرصه الواسعه للتأمل الواسع العميق .

انها الايام المتشابهة المكرره التى تتجلى من وراء الاسوار : انها الحقيقة الضخمه التى تتجسم كل يوم بقوة . إن الدنيا كلها تتحرك وتتطور . الا نحن : نحن الواقفون فى مكاننا . الصباح هو الصباح .

كل يوم نستيقظ على الحقيقة المره . إننا من وراء الاسوار فى معتقل قائم فى صحراء شاسعه تسفى رمالها . وتنظمها كثبان من التلال . .

وفى الليل كانت الريح تصفر ، والهواء البارد الملامح يدخل من بين ثنايا النوافذ الشبكيه . ثم ننام ونحلم ونذهب بعيدا ، وننسى فإذا فتحنا عيوننا عدنا مرة آخرى إلى الحقيقة المره ..

لاعمل لنا . إنما هى حياة ينطلق فيها الخيال وراء الخواطر ويركض . هناك فى الاندلس : تلك الحديقة المتواضعه كنا نجلس لنطلق نواظرنا ، وراء الافق العريض . ونطلق خواطرنا حتى تعدى الحدود والاسوار فنصل إلى بيوتنا وأهلنا ..

وهناك قطار للصحه يصل عبر الصحراء فتعلق أبصارنا به .. انه قادم من قلب القاهرة .. مار بالحدائق والزيتون . . حيث لنا هناك ذكريات واحباب فإذا ازمع العوده تعلقت أبصارنا به مره آخرى ، كانما نرسل معه أشجاننا أو أحلامنا .

وفى المساء تبدو أضواء القاهرة من بعيد ، فنذكر الليالى التى كنا نقضيها فى الصومعه الفكرية كالرهبان والزهاد نقرأ ونكتب ، دون أن نطلق لانفسنا العنان لنسمر أو نستمتع بالحياة .

والقراءه : ماامتع القراءة فى هذه العزله لوكان الخاطر طليقا حراً قادراً على التخلص من التاملات البعيده القلقة المتصله فى كل لحظه بالخروج ..

ذلك انه ليس أخطر من حياة لايعرف صاحبها وراء الاسوار متى يخرج ، وهو فى كل يوم يرى غيره يخرج من دونه . من غير أن يعرف لذلك سبباً واضحاً أو ظاهراً .. فإذا امتدت هذه المرحله سبعة شهور كان من العسير أن يتجه الخاطر إلى عمل إيجابى واضح من وراء الاسوار .

لذلك كان اجمل ماهنالك ذلك الحديث الفكه المرح الذى يريد أن يسرف فى الفكاهه والمرح لينسى حقيقة واقعه .

والحياة مهما كانت هنا جميلة ورائعة فانها مريرة لانها ناقصة ، الجو هنا رائع ، والقمر يتألق فى كبد السماء فيأسر الطرف بالفتنة والجلال ... وهو يسكب اضواءة على الخليج ولكنة لايهز النفس لانه مشوب بالخاطر الذى تخفية النفس .

ذلك أن النفس تهتز للجمال إذا كانت حرة طليقة ، يفعمها شعور الانطلاق . فإذا كانت النفس منقبضة ، يعصرها شعور بالالم فإن جمال الطبيعة يزيد احساسها بالالم .. ويردها عن المتاع به .

اما القراءة فانى كلما حاولت أن ادفع نفسى اليها انصرفت ، وكأنما

تقول دعى ؛ فقد دفنتنى فى غبار الكتب أعواما طوالا تزيد على السنوات العشر دون أن افكر فى طريق الحياة كيف انهجة فما أحوجنى اليوم أن افكر فى أمرى ، وأنظر فى غدى ..

وهذا الطريق الطويل على ساحل البحر .. ما اجمله ، هذا البحر الاحمر باصدافه واسراره ، هناك حيث كنا نجلس ونتحدث . وننظر بعيدا فلا نرى الا السماء والبحر .

فإذا خلفنا البحر وراء ظهرنا راينا الجبل بضخامته وجهالته وقد جللته يتجان من الغيوم ،

* السحب عـــلا السماء ..

سحب سوداء قاتمه لاتنجلى ولا تنقشع .

لقد قُطعنا عن الحياة وعن الضوء وعن الحركة فأقمنا من وراء الاسلاك نترقب شعاعة نور . ولكن هذه الشعاعه كانت ضنينة عزيزة متأبيه .

وكنت اليها متلهفا ولها مترقبا . والقلق يملأ النفس ، والروح تضيق بالحياة ، حتى أصبحت هذه الحياة فى نظرى رخيصه تافهه .. لاتساوى شيئا .

* بزغ القمر متاخرا قليلا

كان لونه ساعة البزوغ احمر قانيا . ثم ارتق فى الافق بعد قليل وتألّق . وأضفى على الصحراء الواسعة جمالا . ازاح من النفس وحشتها الكامنة المخيفة ..

• عندما أقبل الصيف ضقت به ، فلما أخذ يتلاشى ، أشفقت من أن يدهمنا الشتاء •• ثم بدت قوارع الشتاء وعلاماته التى تقبل فى الصحراء باكرة •• كان ذلك نذيرا مؤلما ، تضيق به النفس وتشقى ••

الأيام العاصفة المثيرة •• كثيرة الغيوم والزوابع والأمطار وفى النفس مثلها غبارا وغيوما وظلاما •

أمس : اتفقت الليل كله قلقا مؤرقا •

كانت الريح تعصف • وتهز المنابر هزا عنيفا • لها نباح مقبض ونواح مكلوم !

وكانت فى نفسى وأعصابى وأعماق عاصفة أخرى •

كنت أشبه بالنائم فى قمرة باخرة ، عبر المحيط ، باخرة صغيرة تقاسى قوارع الريح والموج معا • فهى لا تكاد تستقر على سطح الماء إلا لتتدافع وتتمايل وتترنح •

• ماتزال الريح تعصف طيلة اليوم ، تقرع النوافذ فى عنف • أن الصحراء أشبه بمارد جبار يبسط جناحيه كلتاهما ، ثم يهزهما فى عنف فإذا الفضاء كله عاصفة حائرة • لاتعرف لهـا اتجاها ولا نستطيع منها اعتصاما •

• امطرت السماء فى الصباح مطراً غزيرا • كان المطر اشبه بالعصفور الفزع الخائف • كان يقرع النوافذ فى عنف ويسح من وراء فجوات

النوافذ : كأنه دموع امرأة ثكلى مولمة .. ما أن يخف قليلا حتى يعود مرة أخرى .

* أن للمطر يبعث فى نفسى الوانا من الحنين العجيب ، الحنين إلى المجهول ، هذا الحنين الذى ادمنه القلب حتى صار كأنه قطعه من الحياه .

وفى زحمة الحياة ، يجد ساعة الصفو ، بجوارها ، طفلته الوحيده ..
وفى مرحلة طويلة ممتده ، بضعة عشر عاما . لم يعمر البيت غير صوتها ،
ولدت فى موعد « عاشوراء » ودعا لها ابوها حول الكعبه قبل أن يكتمل
العام ، وجاءت من الريف إلى القاهرة نحيفه هزيله ، ثم لم تلبث أن
تفتحت للحياه ، وفاضت ظرفا ورقة ، قرطها الذهبي الجميل ، وملابسها
الجديدة ، تعرضها على كل ضيف ، وتداعب الزائرين ، فإذا ذهبت إلى
الحديقة ، جرت وراء الغراب ، تستيقظ فى الصباح على نداء عن الحلوى ..
وتلقاه عند عودته فى الظهر على رأس السلم .

وعندما غاب ابوها فى متاهات الاسر ، كان يحول وجهة عن كل
فتاه صغيره من اجلها ، ويبغض كل ما تحب من اشياء فلا يتناولها ، وربما
امتنع عن أن ينظر فى صورتها التى يخفيها فى جيبه .

وتقدمت الفتاة ، وبدأت تتطلع إلى الحياة .. أسئلة عن كل شىء ،
وتطلع إلى كل شىء ، ونظرات حائره ، ورغبات متطلعة ، هى مقلدة
ماهره ، تنقل كل شىء ، وتلوك الكلام بين اسنانها دون أن تفهمة ،

ولـكنها إلى ذلك رقيقة الحس ، تغضب من الاشاره اللاءمة ، وتنظر إلى تصرفات ابيها نظرة المدقق المراقب ، لاتترك شيئا دون تعليق ، وتبدى رأيها الخاص فى جرأه ، وهى قادره على تمييز الناس ، تـكسب صداقاتهم بسهوله ، . لاتخاف شيئا ، مرضت فى أول الحياة .. وقال الطبيب انها ستموت ، وعاشت وتحدت الطب ، ولطالما تاهت ، كلما خرجت من البيت ، ذهبت تستـكشف وضلت الطريق .. ومضت الايام وهى تنمو .

- ٤٣ -

... كل آماله مركزة فى أن ينطلق بعدا عن الريف . وعن الحياة الضيقة .. إلى حيث الضياء والنور ، فى القاهرة ...

كنت أتطلع إلى القطار القادم من القاهرة مبتهجا . وأتصفح الوجوه . وهناك فى القرية البعيدة كنت أسعى أول الليل بضعة فراسخ أسيرها على أقدامى لأصل إلى محطة السكة الحديد وأنتظر القطار فأملأ عينى منه ، كنت أحس أنه الحياة النابضة فى محيط الصمت . فلما وصلت إلى القاهرة وعشت فيها بقيت له فى نفسى صورة أحن إليها كلما رأيته أو ركبته .

وهو يعطينى فى الأسفار الطويلة فترة واسعة للتأمل والتفكير والذهاب مع الأحلام كل مذهب ، وأنا أطل من نافذتى على المروج الخضراء ، وأصاحب هذه الترعة : « الابراهيمية » التى عشت على ضفافها فى ديروط زمنا وهى تمتد إلى القاهرة .. إنها تجاور القطار . الأشجار على حافتها ..

وأحيانا تمضى الساعات فأرى الأصيل والغروب والمساء وكل منهما مظهره وجماله ... الأشجار تبدو فى صفحة الطبيعة وصفحة الماء .. ولقد أجد الراحة لأعصابى المجهدة فى لقاء الأهل والريف والطبيعة ، ولكن القاهرة ما تزال تشدنى إليها .

ضحكت أمس عند ما قالت لى ابنتى أنها مغرمة بركوب المراجيح • ضحكت لأنى لا أذكر إننى ركبت المراجيح أبداً . كنت أخاف منها • بل إنى لا أذكر إننى جرؤت فى صغرى على الاقتراب من هذه الألعاب أبدا • فقد كانت محرمة على . كنت قد عشت تحت ضغط نوع من التربية القاسية التى كانت تردنى بعنف عن السباحة وركوب الدراجة أو المراجيح • وكان الفيضان يصل إلى باب منزلنا والأطفال يسبحون فيه ويذهبون معه إلى أبعد مدى • غير انى لم أقترب منه أبداً .. كنت أكتفى بأن أرى مثل هذه المناظر فى حسرة وإشفاق •

لعل هذا هو السر فى أنى عرفت المغامرة بعد ذلك وألفت الاقتحام والجرأة • وحرية التصرف دون الرجوع إلى أحد ، ولعل هذا كان منى رد فعل لتلك القيود التى قيدتنى فى الماضى وحالت بينى وبين أن أذهب مذهب الأطفال •

ولعل هذا هو الذى دفعنى إلى القراءة والتأمل • فقد كنت أجدنى أشبه بالمحبوس فى منزلنا فكنت أقضى ساعات طويلة تحت شجرتى التوت والنبق • وأنا أقرأ • كان أبى يحمل معه كل يوم شتيت من الصحف والمجلات والكتب • بدأت أطالعها باكراً وأفهم مافيها •

أكتب هذا وأنا أرى ابنتى تأخذ المقص لتقص بعض صور الممثلات والمغنيات من المجلات • فى حرية • وأذكر كيف ضربنى أبى رحمه الله بعنف عند ما وجدنى أقطع صورة من إحدى المجلات • وكانت مجلة كل شىء أحب المجلات إلى • كنت أزال لأمى طوال الأسبوع لأحصل منها على قرشين يوم صدورها وأعود بها فرحا لا تسعنى الدنيا ...



كم هو ممتع الجو فى هذه المنطقة : الهرم : سيما ليلا . هذا الهواء النقى. فى شهر يونية . لقد أزدهرت الشجرة الضخمة القريبة من دارنا وغمرتها الزهور الحمراء .

لهذه الشجرة فى النفس ذكريات . هناك ،.. كنت أراها فى أطراف مصر الجديدة عند ما كنت فى الأسر : كان جمالها يذكرنا بجمال الحياة ..

عدت اليوم إلى بيتى . بعد غيبة . فملأت (السبيل) الذى يشرب منه المارة . ووقفت أسقى الزهرات الصغيرة العاطشة .

وأنا أكتب الآن : والمروج الخضر ممتدة أمامى إلى مالا نهاية ، أرى الأطفال وهم يصيدون السمك على حافة البركة . والنوارج هناك تدور على سنابل القمح . والأشجار الكثيفة العاليـة المتشابكة هنا وهناك .. وثمة بقرات ترعى ، وأطفال يجرون ..

* والصباح .. كم هو مشرق .. فيه عذوبة وجمال !

لماذا أنت مشرق أيها الصباح اليوم ! أحقا هو الحب يلون الأشياء بصورة الحسن ويضع فى الدنيا طابع النور . ويرسل إلى الصورة الجامدة رقراق الروح ..

هذا الشيء الغريب الذي يملأ نفسي : ماهو ؟ هل هو الإيمان بعالم الغيبيات والثقة في الأقدار النافذة والإحساس بأن المصادفة خير من القصد ...

* هذا شارع الهرم مهد الحب والذكريات والرؤى في دنيا القاهرة..
أي أسرار عرفها هذا الشارع الجميل .. في الأصائل والأمسيات ..
أي ضحكات، وأي دموع!..

ولكني ما زلت أذكر (الحلمية) ما أن أهل عليها حتى أحس ريحا عطرة ، إن الذكريات الطويلة خلال عشر سنوات : الوجوه والرؤى والأحلام وهذه الوقفات عند محطات الترام وبائعي الصحف .. كل هذه ما تزال حية في نفسي ..

ولكن أي فارق .. هنا نمر على النيل مرتين . يلقانا البحر والزهر ورائحة عطوره الفواحة .. وهنا الأهرام تصابحنا فنحس أننا في مهاد الخلود .

« متى افترقنا حتى نلتقى .. وهل يحلم أهل اليقظة أيها اليقظان .. »

.. كان ذلك ردك على ، حينما كتبت إليك من قريتى ..

أقول لك أننى قد شاقنى الوماد ، وقتلنى الظمأ . إلى وردك النمير ..
فكان ردك لى .. هو « الحكمة » التى لم أعرف كنهها ولم أدرك جوهرها إلا ... بعد سنوات ، عند ما فرق بيننا القدر ، ووضع ذلك الحاجز الكثيف .. الذى نضمه دائما بين الذين اجتازوا الرفيق الأعلى... وبين الذين ما زالوا يعانون آلام الغربة فى دار الفناء .

... الآن أدرك مدى قولك ، وأفهم كلمتك الخالدة ، وأعرف ماذا كنت تريد أن تقول لى ..

أننا قد التقينا ، التقينا لقاء الروح ، ذلك اللقاء الصادق القوى المنيف الذى جمع بيننا على حب وعقيدة وأمل .. كنت أنت فى القاهرة وكنت أنا فى الصعيد .

ولكنى كنت أحس فى كل لحظة أنك معى ... وأن روحك ترف من حولى .. وأن قلبك المؤمن الصادق يخفق إلى جوارى ....

كنت التمسك فى كل أمر ، وكنت أسألك رأيك فى كل شأن ...
وكنت أستمع إلى ندائك وصوتك ... وحديثك : بين لحظة وأخرى .

... ثم تطورت الأمور ، وتغيرت الأوضاع ، وأرسلت إلى تستدعينى ، وتستدنينى ... كانت فرحة العمر يوم أن جاءنى خطابك ..

ثم التقيت بك ، فكنت أراك كل يوم ، وأسمعك حقا ويقينا في كل ساعة ، وأرى كيف تصرف الامور ، وكيف تحدث الناس ، وكيف تصطفيني بين طائفة من الاحباب بالرضا ... والحنان .

كنت أحبك كما لم أحب أحدا من قبل ، كنت اضع هذا الحب فوق كل شيء ، فوق من عرفت ومن لم اعرف ..

وكنت أرتقب ذلك اليوم ، الذى أراك فيه ، وقد تألقت فى مكانك الذى كنت ارجوه لك ، أو الذى كنت أرجو أن نكون فيه معا .

عرفت فيك شمائلا ... عز على أن القاها فى سواك .. ورأيت فيك خلائقا عزت على من تصدوا لمثل ما تصديت له ... ولكن القدر لم يمهلك حتى تقتعد مكانك .. ولم يمهلني .. فقد آثرت أنت لقاء الله ، واخذك الحق إلى جواره ، كأنما قدر أننى لست أهلا لك ، أو كأنما كنت أكرم من أن تعيش بين هذا المحيط الزاخر بالاثام والاحقاد .. ومضيت أنا اشق طريقى وقد خلفتنى وحيدا ، حسيرا ، حزينا ، كل لمحة تذكرنى بك ، أراك وكل منظر يذكرنى اياك ، أراك فى كل صورة ؟ ويموج خاطرى بك فى كل أن ..

فى مثل هذه الايام مضيت وخلفتنى وحيدا .. حزينا كثيبا .. ولكنى كلما تذكرت كلماتك الخالدة .. « متى افترقنا حتى نلتقى .. وهل يحلم أهل اليقظة أيها اليقظان » ثبت إلى نفسى ، وذكرت كيف

انك « روحا » من جنة الخلد ، جاء إلى عالمنا الفانى ، ساعة من نهار ، ثم مضى ... بعد أن ترك فى كل قلب أثرا .. أثرا عميقا لن تمحوه الايام ..

ساعيش لك ، ولن أنساك ، سأذكرك كلما طلع البدر ، وكلما أشرق الصباح ، وكلما أضاء السكون نور ...

اننا لم نفترق .. حتى نلتقى منذ أن رأيتك أول يوم ، ومنذ إن أخذت قلبى ، ومنذ أن ملأت روحى بفيض حبك ، ومنذ افضت على من روحك ذلك الرحيق المصفى الذى أعيش به ..

سلام عليك ، اليوم ، وسلام عليك يوم نلتقى ، فى جنة الخلد .

وقفت تطفىء اربعة عشر شمعة مساء أمس . وهى تضحك من أعماق قلبها ونحن جلوس حول المائده يتطلع كل منا إلى الآخر . ثم تستقر النظرات كلها عليها . . ثم على : كان وراء هده النظرات أمل طالما طوف بنفوس اهلنـا الذين جاءوا من الريف . انه التطلع إلى « الولد » بعد هذا العمر الطويل فانا على ابواب الاربعين . وقد مضى الزمن فى الانتظار والتطلع والترقب .

كنت جالسا على طرف المائدة ساهما افـكر . ترى هل اجد فى أعماق نفسى هذا التطلع إلى (الابن) اننى منذ اكثر من عشرين عاما اسمع هذه الـكلمة دعاءاً فى فم امى ، وابتهالات فى صلوات الفجر لابى . وامنيات تتردد على لسان اختى . .

ولـكن حياتى المفعمة بالعمل ، والاحلام ومشاغل الفـكر والصحافة والأدب ، كانت تحجب عنى هذا الشعور وتملأ على حياتى . لقد كنت أبحث عن مكانى فى دنيا الفـكر .

أننى حين اجد من حولى لاينصفوننى اتجه إلى عمل جديد ، لا ايأس ، يشغلنى دائما التطلع إلى العمل الخالد الباقى على الاجيال . .

أن كثيرا من اعلام الفكر الذين نقرأ لهم كانوا مغبونون ابان حياتهم واحيانا لايجدون قوت يومهم . و كثيرا مالقوا التجاهل والانكار فلم يزدهم ذلك على أن يبسموا فى سخرية ويواصلون العمل ..

ومضيت افكر وانا على طرف المائدة واضواء الشموع الاربعة عشر تشهق فى نسق طروب ؛ وتتآ كل . وتترك من وراءها هذه الخثالات الرقيقه تندفع على جوانبها . بينما هى تتهادى . وقد اخذت تفقد من طولها وتقترب من أرض (التورته) والضحكات تتعالى من حولى فى عيد ميلاد ابنتى ، كنت أفكر فى الذين وصلوا من دونى وحققوا امالهم و كتبوا اسمائهم على رءوس المقالات ونشرت صورهم وعدهم الناس قادة للفكر وزعماء للراى .. وابتسمت وقد تلقيت اكثر من عرض أن اجرى مع التيار ؛ تيار الكتابة المكشوفة ورفضت .. فقد ظللت أومن بالقيم الانسانية ولذلك كان لابد أن أظل بعيدا عن الأضواء ثمة ...

- ٤٨ -

أن حكمة الموت لتكبر احيانا ، حتى تعجز الافهام ، وتفحم الباحثين ...

قد يموت الرجل وهو رجاء أهله ومعقد آمل أبنائه وزوجه ... وقد يعيش الرجل ، ويطول به العمر حتى يبلغ أرزله ، وهو موضع الكراهية والمقت من الناس أجمعين ...

وللقدر حكمته البالغة ، فقد يموت الشاب القوى البنية وهو يتألق ويشرق ، ويجرى اسمه على الالسنة مجرى الاعجاب والتقدير ..

وقد يموت وهو المجهول المغمور فاذا انطوى فى الثرى برز اسمه ولمع.. واستفاض الناس فى تقديره والاعجاب به ...

- وكم من عبقريات طواها الردى وهى فى فجرها المشرق البسام ، أمثال أبو القاسم الشابى والهمشرى ...

وأحيانا يصل القدر إلى الاعجاز فى الموت .. فيموت الرجل وهو على حافة الأمل المحقق ...

قد يداعبه هذا الأمل عاما أو أعواما ، ثم يظل يجاهد فى سبيل تحقيقه وانفاذه ... فاذا جاء اليوم الذى يترقبه ، وقد امتلأ صدره بالفرح والنشوة ... وأصبح من التنفيذ قاب قوسين أو أدنى ، تحطم الأمل وانطوى صاحبه ...

... هذا « على الشريف » كان أمله أن يحمل والديه وزوجة إلى الحجاز ، وقد ظل الأمل يداعب نفسه طويلا ، فلما أن أصبح حقيقة واقعة ، واستعد الجميع وحضروا من الريف إلى القاهرة ، ليسافروا فى صباح الغد ... جاء القدر فصرع عليا فى نفس اليوم فصدمه « موتوسيكل » فمات على الأثر ، وانطوى الأمل .

رحمة الله عليك ياعلى ... ٢٣ اكتوبر ١٩٥٠

لاحظت اليوم وأنا أقف أمام المرآة أن شعرة بيضاء قد اقتحمت لمتى السوداء ، واستقرت هناك ، وأخذت تلمع بين حين وآخر كالنجم الأشهب فى سواد الليل البهيم ..

فتذكرت الشيب ، وارتفاع السن ، وتذكرت انطواء الأيام والليالى ...

حقا .. أن الشعرة البيضاء نذير وعبرة ، هى دلالة العمر حين يأخذ فى الانحدار بعد أن يصل إلى القمه ، وعلامة الشباب حين يأخذ فى الانقباض ، وهى نذير الأيام التى تمر وتنطوى ونحن نلقاها غير مجدين أو آبهين ولا مقدرين عاقبة المصير المجهول .

صحيح أن بعض الناس يشيبون قبل الأوان ، وتبيض هاماتهم فى شرخ الصبا والشباب ، ولكن الفارق بعيد بين الرأس المشمشمة بالبياض فى أنحائها المختلفة ، وبين الشعرة الواحدة المفردة ... التى هى أوقع أثرا فى النفس من أبلغ الاحداث حين تتكشف أمام المرآة .. ذات صباح ! ..

انها من العلامات المميزة بين العهود ، وعلى رأس السنون ، وفى

مفارق الأطوار ، تدعوك أن تقف وقفة التأمل والتدبر وللراجعة الماضى والحاضر ، وما يستقبل من الأيام ...

تدعوك أن تذكر وجهتك وهدفك ، هل حققت ما يجب عليك فى سبيل الفكر أو الأدب أو العلم ... وهل أديت ما عليك للوطن من حقوق ، هى عليك ديون .. ؟

ليت شعرى ... هل تقبل نذر الشيخوخة الباكرة ، ونحن لانزال فى أول الطريق ، ولا تزال الأيام ضنينة . بتحقيق المطامح والآمال ؟! ..

أريد أن اكتب الليله ، ما اشوقنى إلى استعراض مشاعرى، اننى أحرم نفسى من هذه الرغبه كما تعودت فى خلال سنواتى الاخيره أن ازهد فى المتع الروحيه واجتويها . وانطوى فى عزلتى واقوقع حول مكتبي واوراقى ، ما قيمة المتع الروحيه للانسان المنفرد . ماقيمتها إذا لم يكن إلى جوارك قلب يحقق ونفس تحس . وعاطفة اخرى تندمج معك .. ما اكثر مغانى القاهرة التى كنت أتوق اليها منذ سنوات وسنوات ، فلما جئت القاهرة انصرفت عنها وانطويت اجتر أحزانى واعكف على أوراقى واحول هذه الهموم والاحزان والاشواق إلى اعمال أدبيه املأ بها فراغ نفسى . وادفع بها صراخ قلبى .

حاولت كثيرا أن اتجمل وادارى . واعيش الواقع وارضاه واندمج فيه ولكنى كنت فى كل محاولة احس بالافتعال . واشعر بالطبيعة الكامنه فى اعماقى وهى تحاول أن تصابر الاحداث طويلا .. لاتزهد ولاتثور . وأن كانت تعيش فى أتون من القلق المتصل ..

لقد حاولت أن اعيش كالناس . ولكنى كنت احس أنه لاسبيل ،

يبدو انى لطول الاسى قد فقدت الاحساس بالألم · ومن يهن يسهل الهوان عليه ، فى الماضى كنت اصرخ فى اعماق نفسى واتطلع إلى المستقبل، كنت اظن أن كل لحظة عاطفة هى الأمل الذى انتظره، فلما انقضت هذه اللحظات كفقاقيع الماء وانطوت واحدة بعد آخرى فى اسى وحزن وحرمان .. تولد فى النفس شعور باليأس · غير أن هذا اليأس لم يسيطر . ولم يدفع إلى سماء حياتى غيوما سوداء مظلمة · فمازلت أرقب بريق الضياء من وراء الظلام الكثيف ·

أن حياة الفكر ترسل إلى بين أن وأن بعض مسرات النصر وبعض المال ولكنى اسخر من النصر والمال ·· ماقيمتهما مع القلب الفارغ ·

أن الأنسان إذا مابلغ حداً من العمر · رأى العمر فارغا ، كل شىء فى قلبه يستيقظ فى نهم ملح إلى استيعاب العالم بين طياته ثم يجرى الزمن وإذا به يختار بين مالا يحتاج اليه ومايحتاج ،فان يبغ نيل العالم كله لم ينل شيئا » كما قال طاغور .

كان الصباح الباكر : صباح ديسمبر بارداً وأنا منطلق إلى موعدى . الطلاب والفتيات والعمال يمشون مسرعين ليلحقوا الترام أو الاتوبيس . والهواء البارد يلفح الوجوه . وقلما ترى انسانا وليس معه منديل يضمه على أنفه .

... وذكرت صباح الجمعه الماضى عندما ماكنت أقف على رصيف محطة ديروط لاركب القطار عائداً إلى القاهرة ، كانت مياة القناطر تهدر ولا زال ضوء القمر يسطع على صفحات الابراهمية وخفق قلبي ، كان ذلك منذ اكثر من عشرين عاما ، عندما كنت اخطو لأول مره فى سبيل العمل والرزق . كنت اقف فى هذا المكان لانتظر القطار ليحملنى إلى مقر عملى، هناك فى القرية الملفة بالاشجار .

كنت انتظر القطار وفى قلبى ضيق شديد وحزن عميق وضجربالغ .. ضيق الحرمان والريف والاشواق المتأججة إلى القاهره والأدب والصحافه والحب .. تلك الاحلام التى كانت تملأ نفسى فى سن السابعة عشرة .. ومنها كنت اتطلع إلى نافذة الخيال مبهوراً ، ترى هل تقدمت كثيرا خلال

ثلاثين عاما .. لقد تركت الريف منذ عشر سنين ، وعشت فى القاهرة ، وحققت فى عالم الأدب والصحافة بعض الانتصارات .. ونشرت الكتب وكتبت اسمى على كثير من فنون الأنتاج والصحف .

لكن هل حققت ما كنت اطمع فيه منذ ذلك التاريخ البعيد عام ١٩٣٢ .. ما اظن ؛ فما تزال الاشواق واللهب تتأجج فى قلبى ، مازلت احس اننى فى بداية الطريق وأن امالى لاتزال تتطلع إلى التحقيق ..

أيامٌ من العمرِ

- ١ -

صباح مشرق ، ذلك الذى جلسنا فيه إلى البحر من خلال شرفة الكازينو فى استانلى ، نتطلع إلى جمال البحر فى الصباح ، بحر الاسكندريه الحنون ، قبل أن تعمره الاشباح ، وقبل أن تنصب فيه المظلات ، .. كان الصباح لايزال نقيا صافيا ، والبحر هادئا ناعما ، كأنما يتمنى أن يواجه يوما لاتتحطم على موجاته الغرائز الثائره ، ولا العواطف المحرومة . .

كان كصفحة الكتاب البيضاء النقيه ، قبل أن تخط فيها يد سطراً فلما عدنا فى وقت الظهيره ، كانت هناك عواصف فى البحر ، وعواصف على الشاطىء ، هذه المئات من الذاهبين والذاهبات ، بين جلوس على الرمال ، وسابحين فى البحر ومتحلقين أمام ابواب الكابينات ، وتحت المظلات ..

انهن ينظرن بعيون مفتوحه ، وفى شراهة عجيبة إلى هذا الحشد الذى بلغ غايته فى التحرر من اللباس والخلق ، والجرأه على الحياة والبحر ... وقفت أنظر إلى آخر اليابسة ، واول الماء .. وكيف يلتقى عالمان من الحياة ، لكل منهما طابعة الخاص ، واسراره واغواره .. من هذا

النشط تبدأ رحلة الذاهبين إلى أقصى الارض لاكتشاف عوالم جديدة وإلى هنا يقف الركب بالراغبين فى رؤيه الحياة على الشاشة كأنما هى شريط سينمائى .

وعدت إلى البحر فى المساء ، عندما كان الجميع يطوون الشراع ويغلقون الحقائب ويتأهبون للعودة بعد أن امضوا يوما ، من الأيام العاصفة و الهادئة ، ... لعل قلبا فى هذا اليوم قد خفق ، عندما التقى بوجة كان يحلم به ، ورأيت الشيطان وقد أمضى يومه يلعب ، ويجرى هنا وهناك ، يرسم خططا جباره لهؤلاء الراغبين فى القاع ، قد اخذ يستعد لجوله آخرى داخل المدينة فى المساء ..

كان الغروب رائعا ومثيراً ، كان قرص الشمس يوشك أن يغمر سنة فى ثبج البحر ، وقد تبدت من حوله حمرة الدم القانى ... هذه التى تبددت على الشاطىء وتجمعت فى صفحة السماء ..

وغربت الشمس وأقبل الليل وبدا البحر مهولا مخيفا .. ظلمات فى ظلمات ، مضى يزمجر وينوح ، ليس هناك الا هذه المصابيح الباهته على اطراف الكورنيش والاحاسيس المحبوسة فى ذرات الرمال إلى داستها الاقدام العاريه طوال اليوم .

- ٢ -

هـذا الصباح أمام ميناء السويس ، والباخره « كندالا » تحملنا عائدين إلى الوطن كان جميلا، عندما احست القلوب أننا قدعدنا مره اخرى إلى الارض الطيبه بعدغياب . هذه اللحظات التى لاتنسى فى حياة المغترب العائد عندما أحس أنه فى وطنه وبين أهله . وقد حملت نفسه خلال سفره مزيجا من الشوق والحنين وتراءت له فى احلامـه ويقظته تلك الصور ، صور أولئك الذين ينتظرون عودته ويترقبون أوبته .

كانت الباخرة تمخر مياه البحر الأحمر فى خليج السويس ، فى احدى ليالى يناير البارده ، والريح تعصف ، والسفر فى الدرجة الثالثه يطوون اغطيتهم طيا حتى لاتصل إلى اطرافهم هذه البروده التى تنشرها العاصفة فوق سطح السفينه .

ولـكن هل نام المسافرون ، لقد اغمضوا جفونهم حقا ، ولـكنهم كانوا يحلمون بالشاطىء ، فإذا بهم يستيقظون مرة ومرات ، لينظروا الى هذا الفنار أو ذاك ليقنعوا أنفسهم انهم على أبواب الوطن الحبيب .

. . كانت الباخرة تسير فى اناه ، وكنا نضيق بسيرها البطىء ، ولـكنها كانت لابد أن تصل إلى السويس بعد الفجر ، حتى يؤذن لها بأن تضع مراسيها فى طلعة الصباح .

وما أن بدت علامات الشاطىء واقتربنا منه حتى غمرت القلوب موجة من الفرح ، وهزة من الشوق واحساس ناعم بالرضى ، .. لقد عدنا إلى ارض الوطن .

ونسى الناس بعضهم بعضا ، وانقطعت الاحاديث الدائرة ، وغمر الصمت الجميع ، كانوا يتطلعون إلى الميناء ، ويمدون حقائبهم ، وينظرون إلى هذه الزوارق التى آثرت أن تستقبل العائدين فى عرض البحر . ولما بلغنا الميناء كان هناك مئات ينادون أهليهم وكان كل منا ينتظر ويدقق لعل له من ينتظر ... ولم يكن لى من ينتظرنى .

- ٣ -

شبح لايرف عليك ، ويبدو جميلا ، الا فى ساعات اليأس والضيق ، عندما تنفذ الحيل وتتقطع الاسباب ، وتقف الحوائل بين الناس واما نيهم الغاليه التى انفقوا أعمارهم يعيشون فى ظلها ويجعلونها جزءاً من انفسهم . هو « الموت » يبدو كالامل الحلو والخاطر الناعم عندما تتكاثف السحب السوداء فى سماء الحياة ، ويشعر البشر الحى بانه قد عجز وتوقف .

ولـكنه شبح بغيض أشد البغض عندمايمر بالخاطر فى ساعات الصفو والسعاده والهناء ، حين تتزين الحياة وتتبرج وتصل إلى ذروتها فى العطاء والنعماء .. واحيانا يغمر النفس سحرالمتاع فينسى الموت ، حين تأخذ بالعقول خمرة النصر ونشوة الامتلاك ، فلا يخطر خاطر الموت إلا كامر بعيد قد انسى ذكره ...

ولـكن الموت ساخر ، اشد سخرية من متاع الحياة نفسها ؛ وانه ليفجىء اصحاب اللذات وهم فى اشد اوقات السعاده واوج النعماء وغاية الصفو فاذابه يحطم أوانيهم ؛ ويمزق استارهم ، ويردهم إليه ليوردهم مورد الحتوف على صورة تذهل وتروع .

هو الموت ، ذلك السلطان الباطش القوى ، القائم على حياتنا ، لانعرف متى يصل ولا ماهو موعده ، ولا كيف يلقانا ... اونلقاه .

انه هو الغايه والنهايه ، حين يضع الحجاب بين الأنسان الحى القوى الذى تملأ قلبه الامال ، ويندفع وراء الرغبات ، يحس القوة والسطوة والسعادة ، فإذا به يطويه كان لم يلبث الا عشيه من نهار ؛

أنه يخطف الجمال فى روعتة ؛ والحى فى ابانه ؛ والشباب فى تألقه ؛ والعظمة فى أوجها ، والغنى فى زهوته ، وهولا يبالى عظيما أو خطيراً ويسوى فى النعش والتراب بين سكان القصور والاكواخ واصحاب الثراء الواسع والذين لايملكون إلا اثوابهم التى يلبسونها .

عندما يأتى بغته ، يختطف فريسته ويمضى ، ويخلف وراءه الاحزان والآلام ، والوشائح السود ، والقلوب الداميه ، وقطرات من البكاء لاتنضب من معين العين ، . . . وهناك فى الصحراء يطوى ويغلق عليه باب القبر ..

ثم يعود الناس إلى حياتهم ، كأن لم يشغلهم شاغل ، أو يذهب من بينهم عزيز ، ويصبح ككل شىء ، . ذكرى بعد حين .. صوره توضع فوق جدار ، . . وزياره كل عيد ، ثم ينسى ، يبدد ابنائه ما جمعه وامضى حياته فى إكتنازه ، قد يخلد اسمه وقد يبدد ، ولكنه على كل حال شان كل ماتطوى الارض فى حركتها ، ووفق ناموسها الصارم الذى لا يعترف الا بالبقاء ، ولا يؤمن الا بالحى . .

وهناك ، فى الصحراء ، فى ذلك القبر ، وهذه الحفر ، يأوى ومعه قلبه وامأله وافكاره وطموحه وذكائه ... كم من أفكار واراء وتجارب انطوت مع أولئك الذين ذهبوا فى موكب الموت ، ماذا اخذوا معهم وماذا خلفوا . .

انهم لو نظروا إلى ذلك المصير الذى ينتظرهم ، وذلك الغول الذى يترصدهم لهونوا على انفسهم ، ولما افنوا أيامهم ولياليهم يسحقون اعصابهم ويحطمون قواهم ، فى سبيل عرض زائل ، ولأجل مطامع تافهة لاقيمة لها ولا جدوى منها ..

ماذا عليهم لو أنهم عاشوا حياتهم كلها ، لم يغرهم الجد ، ولم تاخذ بالبابهم المطامع ، ولم يذهبوا وراء الاحلام فى سبيل الوصول إلى المال وإلى المادة وإلى الثروة وإلى القصور والمناصب ... ما هذه جميعها الا تفاهات فى موازين الحياة الضخمه التى لاتعترف بالفرد بالواحد ، ولا تبالى بالموت الذى يأكل كل يوم المئات والالوف ، هذه الرحى الدائرة التى تطحن الانسان فتطويه ، وهى فى نفس الوقت تخرج المئات والالوف إلى الحياة .

أن الموت يملأ النفس احساساً بأن معركة الحياة فاشله ، انها صراع لاجدوى منه .

— ٥ —

ما أشد غرورنا نحن البشر ، أن الحياة ليست الا قطار سريع يجرى بنا ونحن لانجد فرصة لنقف لحظة ، أننا نمشى فى الحياة مسرعين إلى غاية مجهوله ، هو الغرور والطمع ، هو حب الحياة ، نيسينا انهـــا أيام الحياة ، أنها من أعمارنا ، هذه التى ننفقها بدداً ، فتمضى عجله ، فلانحس بها إلا كالسراب الموهوم ، ولو أننا اعطينا انفسنا بعض الاناة ، وبعض الرضى ، لعشنا لحظات هذه الحياة لحظة لحظة ...

أننا ندوس هذا كله فى سبيل إستكناه الغيب والوصول إلى الامل الجديد ، كلما تحقق امل ، الفيناه وراء ظهورنا وتجاهلناه ، ومضينا نسعى لأمل جديد ، أننا نسخر من الأمس ، ونعيش ايامنا فى انتظار الغد .. فإذا جاء الغد ، هززنا اكتافنا وقلنا ما اهون الواقع ومضينا نبحث عن امل آخر .. أننا نتساءل متى نصل ، من يدرى ، لعلنا لانصل ابداً ، لعل الموت راصد لنا فى بعض الطريق .

لطالما مر هذا الخاطر فى نفس كل منا ، فحاول أن يتوقف أو يتنفس ، أو ينظر إلى هذه الصور التى من حوله ؟ والتى يطويها

القطار مسرعا .. وهو فى طريقه المجهول المصير ... ولكن كم منا من كان يفمل ، وكم منا كان يعجز ، .. كل صباح كان يزيدنا اندفاعا ، ..

وفجأه يقف هـــذا القطار ، يقف فى صوره سرير فى مستشفى ، أو حادث فى الطريق ، أو قضاء يأتى رغم الانف ، مما لا يستطاع دفعه ، . وهنا تبدو النفس عاريه ، وقد انصرفت عنها امالها وتفرقت احلامها .. وتبددت مطامعها ...

وتبدأ جوله الفكر والخيال تقطع الطريق ... ليس بالواقع والحق ، ولكن بالوهم والرؤى .. وليس إلى الامام ، إلى المستقبل المجهول ، ولكن إلى الوراء .. حيث الماضى ، حيث اللحظات العابره التى مرت ، وهنا تبدو النفس وكانها تسبح فى أوهام ، وكانها لم ترث إلا قبض الريح أو حصاد الهشيم ..

ما اشقى الحياة ، انها سراب خادع من الوهم يسميه بعض الناس مجداً ، ويسميه البعض الآخر حبا أو سعاده ... أو هناء؛ حقا .. ما اتفه الحياه ، انها الجرى وراء المتاعب ، وراء الفناء ..

- ٦ -

عندما يزحف بنا العمر إلى الاربعين ، أو يقاربها تبدو فى أعماق النفس مظاهر من الجزع والانقباض .. ربما كان مصدره ذلك الاحساس بأن موجات الشباب قد بدت تنحسر ، وعهود الهوى قد ولت ، النضارة قد إذنت بأفول ..

انها هزة عاصفه ، تمر بالجهد المكدود ، من امضى أيام شبابه كادحا يعمل ويكون حياته ، ثم إذا به يفاجىء بانه قد بلغ غاية الشوط .

كثيرون جدا من يزعجهم الاقتراب من هذه العقد فى مراحل الحياة فيمضون يبحثون عن الأيام القليلة يعـــلأونها باللذات . ويحققون الكثير مما فاتهم أيام الشباب .

انهم يستيقظون فزعين ، على صوت الشيجوخة القريب ، ذلك الذى بدأ خطواته الأولى شعراً أبيضا على مفرق الرأس ونقلصا فى العضلات وغضونا فى الوجة ، فإذا بهم يحسون كانما قد فاتهم القطار أو كاد ، فاذاهم يحاولون الانتقام باللعب من متاع الحياة الذى صدفهم عنه الكفاح والنضال طوال سنوات العمر ...

قليل أولئك الذين يحسون انهم قد اقتربوا من تمام الرجوله وكمال الشخصية فإذا بهم ينظرون إلى الحياة فى هدوء وابتسام ، بعد أن ولت

أيام الصراع بين العواطف والغرائز ، وانتهت سنوات الصعود والهبوط فى الاعصاب والشمائل ، وكأنما بكرت الحياة تأخذ وضعها الطبيعى ، حيث بـــدأ ينظر إلى جوهر الحياة دون ظواهرها ، حيث تبدو حـكمتها وخبرتها بعد التطلع إلى ما وراء اهوائها ، هنالك تمر به الاحداث والقوارع والصدمات فيلقاسا باسماً فقد بلاها من قبل فلم يعد يهتز لها كثيرا ، أو يحسب حسابها ، وقد بدا فى حديثة الهدوء ، وفى تصرفة الاتزان ، وفى تفـكيره الاعتدال وفى اعماله روح من الاناة والقوة والثقة .

وفى اقتراب الاربعين ، تذهب عن النفس الاحلام الـكاذبه ، والامال الموهومة ، وتبدو الحياة بعد دور الصراع الشاب الطويل ، وكأنها قد اعطت خير ماعندها ، وتبدو النفس بعد طول المد والجزر وقد رضيت بالواقع ، وبدا لها مالم تحققة من احلام كأنه أوهام ، وقد اخذت ترضى وتسكن بعد أن كانت تنطوى على التمرد والأندفاع .

ومن العجيب أن لاتتحقق احلام الشباب إلاعلى ابواب الشيخوخة ، ولا يصل الطموح إلى رغباته واماله الا بعد أن تـكون قد ماتت فيه عوامل الحماس والالتهاب والوقده . فيجىء المال بعد أن يرتفع السن ، أو تجىء الشهرة ، أو المجد ، .. هى سنة الـكون ، أن تـكون أيام الشباب هى أيام الـكفاح والصراع الطويل فإذا تمت الاربعون واوشكت المعركة أن تنتهى ، والالواء أن يطوى ، والقلب الجامح أن يقر . أخذت الحياة تكشف عن حسنها وتبدو ناعمة مشرقة مليئة وفيرة بالمال والشهرة والمتاع .

الطعام ، هل له فلسفة خاصة ، تدفعنا إلى أن نتأنق فيه ونبحث عن أسباب تجميله ونقف من انواعه واصنافه وصناعته موقف الناقد المنتقى وقد نصل فى ذلك إلى الحد الذى نعتقد معه أن الاكل هو كل شىء فى حياتنا ، أحيانا يكون الطعام غاية الحياة ، والمحور الذى تدور حوله اعمالنا والشغل الشاغل الذى يملأ القلوب والنفوس . ومن أجله تقوم الثورات والعواصف . وتدور المعارك ، كانما هو كل شىء ، وكثيرا مايبدو الاكل هدفا واضحا مزدهيا ، تشاد له الجهود وتمد الاسباب ، وتهيئى الوسائل ، وذلك عندما تتأزم أمور الحياة وتضيق النفوس بالاحداث ، وتنحسر الحياة فى صورة من يحرم من أمور الحياة فلا يجد مايسرى عنه ويدفع غائلة الشقاء ، إلا الطعـام . حينئذ يبدو كأنه نوع من الانتقام والتشفى .

بعض الناس يرون الطعام وسيلة ، همومهم واما لهم ومطامحهم اكبر منه ، فهم لايبحثون عنه ولا يتأنقون فيه ولا يبذلون له الجهود ، وأنما يرونه اهون من ذلك كثيرا ، يرونه بضع لقيمات تسد الرمق وتذهب

الجوع ، وتدفع الدم فى العروق ، لتشحذ العقل والعاطفه إلى العمل الموصول . فهو فى نظرهم هين ، قليل القيمة ، يؤخذ فى عجلة ، ولا يبحث عن انواعة أو فنون طهية أو صناعتة أو عرضة . هولاء هم الذين يجدون فى الحياة من اللذات المعنوية والمتع الروحية والنفسية مايصرفهم عن تذوق المتاع المادى الذى يعدونة تافها ، فإذا أتيح لهم ذات مره أن يدعون إلى الطعام فى جلسة انيقة ، سخروا من الناس ، وزهدوا فى اسلوب العرض ، ولم يبهرهم ذلك الاسلوب لأن لهم لذه من غيره تغنيهم عنة وتصرفهم .

— ٨ —

هذا البحر المحيط ما اجمله ، ما اروعه ، أنه آيه الآيات على قدره الله ، وصورة من صور العظمة الالهية ، حين يقف الأنسان القليل الضئيل على الشاطىء يرى الماء من حوله يمتد ويمتد وهو فى سكونة وعواصفة وموجاتة التى تضرب الشاطىء بعنف أو هواده ، ومده وجزره ، وبتهويمه العابس أو الناعم ، أنما رمز لقوة اقوى من كل قوة .

هناك ، حيث تقف على الشاطىء تحس بشىء غريب ، شىء فى اعماق النفس لاتستطيع أن تصوره ولا أن تعبر عنه ، انه إحساس عجيب ، فيه حنين ، وفيه حرمان ، وفيه شوق ...

ترى هل هى الأمال القديمة الـكامنة فى النفس تريد أن تذهب وراء هذا البحر إلى الشاطىء الآخر . حيث دنيا جديدة كنا ، منذ زمن نبحث عنها ... حيث الغرب بسحره واضوائه ولياليه ، الشرق بعطوره وبخوره واحلامه انه صورة من النفس العميقه كاغواره . الدافقة كمياهة . الصارخة كموجاتة . فيها من اناتة ونواحة . وفرحة واشراقة . وبكائة وضحكاتة .

إنة يحمل القلوب الغائبة إلى القلوب المشوقه . ويباعد بينها ، أنة يفرق الاحباب ثم يجمعهم . كل من يركبة يطلب صيداً . يطلب حبا أو مجداً أو حنانا . وهو احيانا يعصف بالقلوب الظامئة فيحرمها امالها . ويحطم الأمال التي تترقرق فلا يبق عليها . ويبطش بالاحلام والأمال فيدفعها إلى قاعه دون رفق أو مبالاة .

إنه رقيق وعنيف . ورحيم وطاغية . إنه البحر . صورة من صور النفس حين تضطرب بها الازمات . حيث تظلم الدنيا فلا ترى شاطئا ولا براً . وأن شواطئه اشبة بالعود بعد الغياب الطويل . واللقاء بعد الفراق . والامن بعد الشقاء ..

- ٩ -

تجنح النفس إلى العزلة في ساعات الصفو كما تجنح اليها في ساعات الالم ، وغايتها هو أن تصل إلى الغاية في هـــذا أو ذاك . لعله أحساس غامض مبعثة أن تجد النفس ذاتها وتتأكد من أوضاعها .

ولاشك أن كل منا في حاجة إلى أن هذه العزله بين آن وآخر . انها اشبة بمحطة فكرية هادئة . في ضجيج القافلة الضخمة التي تسير بقوة . أن الوحدة تعطى النفس فرصة النظر في أمور الحياة مامضى منها وما هو في طريق الغد : انها صقال لهذه النفس حتى لاتظل مغمضة العينين : تجرى منقادة إلى فرس جامح : فهى تهدى العبرة والأسوة ...

إننا في طريق الحياة الملىء بالصخور والاحجار ، كثيرا مانفقد الطريق الصحيح وكثيرا ماتكون وشيكين على الانحراف . وقد تدفعنا الحماسة إلى أن نفقد وعينا تحت سيطرة الزخارف والمظاهر . فإذا اتيحت لنا الوحدة . ونفضنا من فوق كواهلنا تلك الاعباء . ربما أستطعنا أن نرى اشد صفاء . ونفكر اكثر حكمة . وندير ابعد روية ...

ولطالما يحس الأنسان منا وهو فى خضم الحياة انه عاجز عن مواجهة نفسه ، كأنه يتهيب الوقوف امامها وجها لوجه . تدفعه الخطوه إلى الخطوه التى بعدها ، وتعده الظفر بالأمل فى ظفر جديد ، ولكنه قد يكون وشيكا أن يتحطم ، ربما كانت اعصابه قد أجهدت . أو أن صحته قد نخرها المرض وهو لايدرى ... فإذا منح نفسه هذه الفرصة فاعتزل المجتمع الصاخب . اتيح له أن يرجع إلى الأمور فينظر فيها من جديد على ضوء التجارب . ويصفى النفس من شوائب الصراع الدائب . ويمنح نفسه الاناة والسلام . لعله يعود إلى الحياة اشد صفاء نفس . واكثر قدرة على مواجهة الحياة .

- ١٠ -

حقا .. ما هذه الحياة ماهى الا ملعب كبير . كل منا يؤدى فيها دوراً . لم يتخيره . ولم يفكر فيه . وانما أعدله فلا سبيل إلى اختيارما يرضاه أو يرغب اليه ..

أنى لاتساءل .. هل يستطع الانسان منا أن يرسم خط حياته .. هل يمكن أن يدعى انه يستطع التحكم فى اسلوب حياته .

فى حيـــاة كثير من الناس مسرحيات ضخمة . مفاجئات وارتطامات واحداث . تأتى فجاء على غير انتظار . ابعد مايكونون توقعالها ، هذه الحياة . على إى اسلوب تمضى . وماذا يؤثر فيها ، هل هناك القدرة على قيادتها نحو الوجهة التى ارتضاها أو رسمها فى ذهنه . ام أن عوامل آخرى غير منظورة . غيبية . هى التى تأتى فتضع علامات الطريق . وتحول اتجاهات الحياة إلى الوجهة التى رسمها القدر .

هذا الغيب المستور وراء الافاق الظاهره . ماهو . كيف يمضى بنا . وهذه الحياة التى نحياها ونجهد فى سبيل صناعتها . مامدآها . ما اهدافها . ماذا

سناخذ منها . هل هى القيمات القليلة . والمتاع السريع التافة أم أن هناك هدف بعيد المدى نحن مسوقون اليه لانستطيع أن نتحكم فيه .

* * *

هولاء الذين عاشوا حياتهم يجمعون المال ويقيمون القصور ويمتلكون الضياع ، ماذا اخذوا معهم عندما انتهت حياتهم .

هل نستطيع أن نعرف الحكمة العليا لهذا الصراع المنيف عندما نندفع فى الحياة لا يردنا شيء وراء اطماع كلها اوهام وامال كلها سراب ، سواء أكانت مطامع الحب أو المجد أو السعادة ...

وهل حقا الغاية من هذا الصراع هى البحث عن السعادة وحدها : أم أن السعادة فى ذاتها ليست الا صورة لاتستقر لمظاهر تتحول بين أن وأن .

هذه الصحراء الممتدة فى الآفاق إلى اقصى مايجده الطرف ، .. إى معنى ذلك الذى تبعثه فى النفس . إنة مزيج من الشوق والحنان إلى ذلك المجهول الغامض ، إلى المصير اللانهائى الذى لايعرف احد مداه ، .. ولا يدرى ماوراءه . عند ماينـدفع البصر ، هناك حيث يرتبط الفضاء الفسيح بالسماء .. تحس النفس بهزة شاعرية بعيدة المدى .. الخالق القوى الجبار الذى صنعه بيده وصاغة على هذه الصورة الرائعة القوية .. هذه الآصرة التى تربط بيننا وبين هذا الـكون كاننا جزء منه :

هذه الـكثبان من الرمال الصفراء .. الارض المنبسطه ، كيف تبدو تحت أشعة الشمس وحين يملأ الغيم صدر السماء .. وعندما ينزل المطر وتتفتح افواه الغيث ..

وهذا الصمت الذى يغمر الارجاء : الطبيعه كأنما هى نائمة وسنانة ، كأن الزمن كله صباح طويل ممتد ..

الشمس ساعة الغروب . ما اجملها . وراء السحب المتناثره ، متأنقة بالوانها الزاهيه حين تبدو فى عشرات من الصور فى دقائق متعددة ولحظات متوالية .

حين أنظر إلى الفضاء أحس بشىء من الحنين ، احس أننى جزء من هذه الطبيعة ، أرى على اطرافها صوره خافتة . هى صورة الحب ، حب الحياة، حقا ؛ هل يستطيع الإنسان أن يعيش فى البرارى والصحراء وأن يرتضيها فيأنف من المدينة وينعزل عن العمران ..

ما أجمل هذا الصباح . ولكن أين النفس المشرقة التى تستروح هذا الجمال وتسعد به . انها هناك وراء ركام دامس من الالام والاحزان، حقا . ليست الطبيعة وحدها مصدر الجمال ... حقا ما ابهى الطبيعة فى هذا الصباح حيث تبدو السماء صافية والدنيا صامتة والطيور تسقسق فى ترنيم جميل والندى يغمر اوراق النبت الصغير كأنه الدموع فى عين محب حزين بات ليله أرقا فلما رأى اشراقة الصباح ثابت نفسه من الامها وأحس كأنما تعده الطبيعة بالذكر والحنان .

هذه اللوحة الفنيه الرائعة كيف تتحول إلى صورة آخرى من الجمال حينما تشرق الشمس وتنشر أشعتها ودفئها .. ثم لاتلبث الغيوم أن تتلاق فى كبد السماء .. وتتحول الطبيعة من حال إلى حال ... هذا الهواء العاصف وهذه القطع من السحب التى تجرى موليه هاربة كأنما وراءها راهب اسود يحمل عصا سحرية يدفعها بها أمامه — وحينما ينزل المطر .. مدراراً يعطى هذه الأرض العطشى ريها .

حقا ما أشبة هذه الطبيعة بالنفس الإنسانية فى تحولها من الرضى إلى الغضب ومن الفرح إلى الحزن . ومن الشوق إلى الحنين إلى البكاء ..

بل ما اعجب هذه الرابطة القوية بين النفس الأنسانية وبين ظواهر الطبيعة ، هذا الجو المقبض المدلهم الذى تعصف فيه المواصف وتتمرد الاعاصير ، كم يبعث فى النفس الانقباض ويفرغ فى الأعماق بذور الانطواء . حقا ما اجمل هذه التحول بين شمس تسطع فتملأ الدنيا حراره ودفئا ثم سحاب جارف يطويها .. ثم غروب وشروق وليل وصباح ..

انه معنى من معانى العلا والقوة ، ذلك الذى تستشعره النفس عندما تحلق الطائره فى الهواء وتمضى تخترق الفضاء ،

فى المرات الثلاث أو الاربع التى ركبت فيها الطائره ، كان قلبى يخفق بقوة ، كأن أملا كبيراً قد تحقق وقد كان يحــــلو لى أن أنظر إلى هذ الـكوكب ونحن نبتعد عنه ، لنحلق فى السماء بينما يبدو هو كانه جرما صغير ، حيث نرى الأنهار الضخمة الممتدة كانها خطوط رقيقة من قلم رسام فوق لوحة عريضة . حتى المبانى الشاهقة والعمارات الضخمة والمساحات الشاسعة لاتبدو إلا كانها رسم له ظلال وزوايا قد لونه صاحبة بالالوان الطبيعة فبدت مساحات منه خضراء ومساحات سوداء .

وعندما تصعد الطائرة إلى السماء تحس النفس أنها قد تحررت شيئا ما من الأرض ولـكنها تظل معلقة بها لاتنفصل عنها تستدنى الوقت لتعود اليها مرة آخرى .

ومامن طائر نظر إلى السماء واستدنى نجومها، فالسماء مازالت بعيده تغلق ابوابها على اسرارها ، اما الارض فانها مازالت تربطنا اليها برباط

من حرير ... حتى أننا لنبحث احيانا عن بيوتنا وبيوت أحبابنا ونحن على هذا المدى البعيد من الطيران .

والاهرام الضخمة الشامخة تبدو من الطائرة كأنها قد غرقت فى الرمال ، لقد كانت تقول انها معجزة الأرض ولكنها انحنت عندما رأت معجزة السماء !

اما الصحراء فهى ساكنة ساهمـــة تبسط على مساحاتها الضخمة الواسعة جناح الرهبة والخوف فما تبدو إلا نائمة من فوق هذا البساط السحرى .

ولكن الطائره لا تمنح النفس الشعور بالانطواء الذى يملأها فى البواخر والقطارات ، إنها اقتحام دائم لا يتوقف فى عالم المجهول والطائر داخلها لا يريد أن يحس بأنه قد انفصل عن الوجود من حوله ، فهو يتطلع دوما فإن هذه الروح المحبوسة فى الجسد الطائر لا تريد أن تبقى محلقة فى الفضاء وانما تبغى دائما أن تعود إلى حيث ولدت وحيث تموت .

- ١٤ -

من اللحظات الخالده التى لاتنسى ، اللحظة الأولى التى واجهت عنياى فيها « الـكعبة » ، عندما دلفنا إلى بيت الله الحرام فى مكة .

كان ذلك فى غباشة الصباح الباكر ، وقـــد بدت الـكعبة رهيبة أكسبتها كسوتها السوداء مظهراً من مظاهر الجلال . وقـــد بدت شامخة وسط هذا المسجد الضخم . والمسلمون حولها يطوفون فى ذلة وخضوع لله ...

ومضيت اتحسس وجهى واسال نفسى : هل أنا حقا فى « مكة » وأمام بيت الله الذى بناه ابراهيم . وانى هذه المره لا أحلم ولا أرى صورة من الصور ...

حقا . أن منظر الـكعبه يعطى النفس هذه الصوره من الخشوع والهيبه والرهبه الغامره .. وفى المساء حينما صلينا وبدت طلائع الظلام تلف مكة .. وتنبسط على جبالها العاليه التى تحيط بالمسجد . بدت الـكعبة كالعملاق الضخم الذى لايستطع الظلام أن يقهره أو يطغى عليه . بدت فى ثوب أشد روعة وجلالا ..

وهذه الجموع تطوف وتطوف . وتبتهل وتدعو . وتسبح وتذكر . وتجأر بالدعاء إلى الله . تسأله وقد جاءت إلى حرمة ملبية ..

ما أبهاها ؛ هذه الكعبة التى تتجه إليها الوجوه ، والقلوب فى الصلوات من انحاء الأرض . انها رمز على ذلك المعنى الخالص . معنى التوجة إلى بارىء السموات والأرض ..

ومن كل مكان : ترى الكعبة راصدة قائمة وقد تكون فى شغل بالحديث أو العمل ثم إذا بك تتلفت فترى الكعبة فجأة .. امامك فتحقق القلب فى قوه .

وهناك من فوق جبل النور وأمام غار حراء تنظر فى الافق فترى لأول وهله غباشة ضخمة من المبانى والجبال ولكن ماتلبث أن تبدو لك الكعبة فى عظمتها وجلالها . واضحة المعالم من خلال هذه الدور فيحقق القلب . هذه هى مكة على ذلك البعد البعيد .

- ١٥ -

على شاطئ البحر الاحمر حاولت النفس الحزينة الجريحة ... أن تجد عند البحر مايرد عنها القلق والانتظار، .. السحاب الكثيف يغمر جو السماء والدنيا تتبدى كاتما هى فى اشراقة الصباح الباكر والبحر هادىء ساكن عميق تذهب العين مع موجاته فلا تتوقف الاهناك، حيث الشاطىء الآخر ، حيث الحياة والناس والحرية ...

أن الافكار الحزينة التي ارتبطت بموجات البحر كانت تحمل معها صورة الماضى الحنون وكانت ترسم صورة للمستقبل البعيد عندما تعود .

واصبح البحر صديقنا الذى نسر إليه بالآلام ، ونناجيه ونحن جلوس على الرمال الصفراء نبنى القصور من الرمال ثم ندعها له ليغير عليهـا فيهدمها .. عشنا معه اياماً إمتدت من الشتاء إلى الصيف ، كنا نلم به بين الحين والحين فيلقانا فرحا تاره وغاضبا تاره آخرى ...

هذا البحر ، انه الأمل ، هذه البواخر التى تمخره ، أليست تحمل الناس إلى شواطىء الحريه .. ، أننا نسأل عن التاريخ المقدور الذى سنغادر فيه شاطىء البحر، شاطئ الصحراء .. لنعود إلى دنيانا الأولى .

فإذا خلفنا البحر ورائنا .. ونظرنا إلى الافق ، راينا هذا الجبل الاشم الضخم ، يبدو فى ظلام الليل كانه المارد الذى يناطح السحاب .. فإذا اصبح الصباح بدت صفحته الحمراء المشوبة بسمرة .. تزدهى تحت اضواء الشمس ... أنه رمز قائم على عظمة الله .

أنه يفصل فى هذه الصحراء بين أودية ومغارات . . فإذا ذهبنا نقطع الطويل إلى قاعدته .. رأينا هذه الينابيع تنفذ من الصخر وتندفق بالماء الساخن إلى الوادى فتوقظ الوسنان من الحشائش والنخيل .. وترد لها الحياة ..

وعدت أذكر جبل الرحمات فى عرفات وجبل النور فى مـــكة وجبل أحد ...

- ١٦ -

كانت فى النفس لهفه إلى ذلك الموعد مع أحب مكان إلى رسول الله ، إلى غار حراء ، هناك فى ذروه الجبل الاشم ، جبل النور .

كنا نصعد ، والشمس تصعد ، ومعنا أستاذنا واخواننا ، من حولنا ، على سفح الجبل يصعدون . منهم من يسرع ومن يستأنى .. وكلما قطعنا مرحله فى الصعود نظرنا إلى اعلى فوجدنا الجبل لايزال أشم شامخا ، فاذا نظرنا تحتنا فاناما زلنا قريبين من الأرض ، لم تقطع آلا القليل .

وبين مرحله وآخرى كنا نجلس لنستريح ، ولنملأ العين من هذا الفضاء الفسيح ، ونحن نذكر النبى حين كان يرتاد هذا المكان ويصعد إلى غاره الليالى ذوات العدد ، وفى رمضان .

ولما وصلنا إلى قمة الجبل انحرفنا عنه ، فإذا شق ينزل إلى الغار ، فلما نزلنا وجدناه ضيقا لايسع إلا رجلا واحداً ، يستطيع أن يصلى ركعتين ثم وقفنا ننظر إلى مكه من بعيد ، والكعبه فى صدرها قائمة ، .. وتمثلنا الرسول وهو يقضى ليلته يتحنث ويصلى ويذكر الله ..

ومرت بالخاطر صورة جبريل وقد فجأه لأول مرة برسالة النبوة وبآي القرآن .

ثم جاءت رحلة الهبوط ، لقد كان يسيراً عن الصعود ، ولم يستغرق من الوقت . إلا قليلا .

لقد مضت الايام ، فأنست الكثير من الذكريات ، ولكن جبل النور وغار حراء مازالا ماثلان فى القلب لايزول ذكرهما نذكره كلما أنسنا من انفسنا الوحشة عدنا بذكرها إلى رحمات الله .

هذا الجمال المنبث فى أنحاء الكون ، حيثما ذهبت فى الأرض تراه جديداً بجدداً ، هناك فى السفوح وعلى البحار وفى الصحراء وفوق قمم الجبال ، حيث الطبيعة تنفق بوفره ، تلك الصور الفنيه الرائعه التى ابدعها الآله الأعظم ، هذا الجمال فى صوره المتعددة التى نراها ونحن نشق قلب أوربا ، حين نحلق بالطائرات أو تمضى بنا البواخر فى البحار هناك على جبال الهملايا ، أو عند شلالات نياجرا ، أو فى صحراء القازعير ، أو على شواطىء الاسكندرية ، أو فى بلاد الشمس فى منتصف الليل أو على قمم الثلوج فى سويسراً ، أو مصايف لبنان . هذه الصور جميعها ، هل هى الجمال ..

اكاد اجزم بانها جميعها ليست إلا الإطار الدقيق من حول الصورة ، هذه الصورة لابد أن تكون خفقة قلب ، قلب يحقق فى سبيل المجد أو الحب ...

لابد أن يكون هناك وجه جميل يجمل هذا الوجود جميلا ، احيانا يكون وجة الأم أو الحبيبة أو الزوجة ، يكون على صورة الأبوة أو النبوة ،

إنه عاطفة قائمة فى النفس تعطى هذا الجمال معناه ، وتضع فيه سره ..

اما هذه النفوس التى تعيش بغير امال وبغير حب وبغير عاطفة ، فان هذه الصور الرائعة لاتبدو أمامها إلا احجاراً أو جبالا أو مياه يمكن أن ترى فى المتاحف أو تشاهد فى كل مكان .

حقا ، أن النفس مرتبطة بالوجود ، لايستطيع أن تنفصل عنه ، ومن لبابها وسرها يستطيع هذا الوجود أن يجد حياته وحيويته .

- ١٨ -

خير الخواطر التى سعدت بها ، انبثقت من نفسى وأنا فى القطار .
هذا القطار الذى يجمع الناس ، ساعات طالت أو قصرت ، يمنحهم فى خلالها كثيرا من العواطف والخواطر ... أن النفس التى اجهدتها متاعب العمل الرتيب فى المدينة الكبرى فى حاجه إلى أن تخرج من الشرفة ، إلى هذا الوجود ، أن القطار نافذه من هذه النوافذ الجميلة ، التى تطلعك على الكون حيث ترى المروج الخضراء ، والسفوح الواسعة ، والفلاحين يذهبون ويعودون ، يجرون ابقارهم وجواميسهم ... هناك ، عندما تشرق مناظر الترع الجارية ، والزروع الواسعة ، تتفتح النفس ، وتحس أن عبئا ضخما قد رفع من فوق الاكتاف ، وأن النفس قد خلصت من هـــذا الأسلوب الرتيب ، ومن هـــذه الصور المتكرره المله ...

وفى القطار يجمع المسافر صوراً متعددة ، ربما كان هذا الخط الطويل من السفر ، قد أصبح مالوفاً لدية ، حبيبا عنده ، كانما أصبحت بعض هذه المناظر قطعا من النفس .

هذا القصر الأزرق القائم فى وسط حديقة واسعة هناك عندما يخرج

القطار من بنى مزار ، هذا المصنع الضخم التى يشارف مغاغة ، هذه الساقية وهذا المطحن المهجور ، وهذه الكرمة الذابلة ، كل هذه الصور نراها ذاهبين وعائدين كأنها من الأصدقاء الذين ... نعرفهم منذ عديد من السنين .

أحب القطار ، لأنه ينقلنى إلى آفاق الحياة ، وتنبعث فى نفسى الآمل ويهز العاطفة ، أنه يردنى إلى الأرض التى ولدت عليها ، ونشأت فوق مهارها ... إلى الأرض الآم .

عندما تضيق النفس بدنيا الواقع تعود إلى الذكريات ، لتجد فى صورها وملامحها ما يدفع عنها متاعب الإم المتشابهه والحياة الجاريه ، هذه الالآم والمتاعب التى تصبح بعد قليل « ذكرى » ..

وآثر الذكريات ، ذكريات الطفوله والشباب الباكر ، .. هناك فى الريف حيث الحياة تبدو هادئه صامته ، يطلع عليها الصبح فإذا هى وسنانه ، لاصوت هناك إلا هذه الطيور الصغيرة المغردة التى تستقبل الصباح بموسيقى عزبة ندية ، وهى تتنقل فوق غصون اشجار كانما تؤدى رقصة الربيع .

هناك ، كنت أخرج مبكراً لامتع النفس بهذه اللوحة البديعة ، الرائعه ، ولألمس الندى وقد تناثر على أوراق الزرع ، وأمشى بين الجداول لارى صفحة الماء فى النهير الصغير ، وفيها صوره السماء .

فإذا اجهدنا المسير جلسنا على طرف القناه ، ننظر إلى الشاطىء الآخر وقد بدت على حافته الاشجار الباسقة المرتفعة فى السماء . حيث يزف الهواء روائح الحديقة المجاوره ، فإذا هى خليط من عطور لازهار مختلفة

واذا بالنفس سعيده مشرقة ، حيث تنطلق العين تنظر والاذن تسمع والأنف تشم . . ، ولـكن النفس تحس بانها مازالت تفتقد شيئا . .

فإذا جاء المساء فهناك سهرات فى اطراف القرية ، حيث وابور المياه وبجواره النار ماتزال توقد وتلتهم الاطراف اليابسه لتزداد وهجا وارتفاعا فى الجو ، ونحن إلى جوارها نستمتع بالدفء العجيب ، ولا يلبث الخفيران يغزف إلى النار ببعض « قناديل الأذره » التى نلتهمها فرحين ضاحكين بين تطاير الفكاهات والاحاديث .

ونمضى إلى جوف القرية حيث نرى هذه الحلقة أو تلك من حلقات الذكر نقف بجوارها لحظات نشهد أولئك الذين على يتمايلون طربا وهم يذكرون أسم الله .

رايت « الموت » هذا الاسبوع يحلق حول هذا البيت ، عملاق ضخم لايستطع احد أن يواجهه أو يقف فى طريقه . تنحنى له الجباه . فأهله لايملكون الا السواد ملبسا حيث تنهمر الدموع والقلوب تفيض بالالم والجوانح تنطوى على الحزن . هذا الشاب الذى ذهب وهو فى ريق الصبا غريب ، بعيد عن أهله ، يحف موتة الغموض . غاز التدفئة انساب عليه فى الليل فذهب به . صاحبة المنزل فتحت عليه جناحه فى الليل فإذا به مسجى قدمات ...

ومضت الأيام ثقيله . ميت لم يحضر بعد . موعده لم يعرف . ثم يعرف الموعـــد ونترقب الطائره المحلقة . ثم نذهب إلى المطار ننتظرها وتقبل وتنزل ...

المطار فى ظلمة الليل مقبض . الطائرات تنزل وتصعد والهدوء كأنه نواح على ميت . القادمون من الطائره التى تحمل الجثمان مطرقوا الرءوس كانهم يسيرن فى جنازه الشاب الذى حلوه من اطراف امريكا . ووصل الجثمان فى صندوق .

لأول مره اذهب إلى المطار لأقابل جثمانا فى صندوق ؛ لأقابل ميتا ، منذ أسابيع قليلة كان قد سافر من هذا المطار نفسه حيا يضحك ويؤكد انه سيعود قريبا ..

وها هو قد عاد كما اكد ... وبينما تعتصر القلوب الآلام والاحزان هوى ابوه المريض المسجى .. هذا الذى لم يسمع نعى أبنه شفاها ، وأن كان قد عاشه بين الحلم والحقيقة . كان فى غرفته البعيده يسمع أصداء الصياح والبكاء والتحشب واسم أبنه يتردد ، ويسمع القرآن . ويرى الداخلين اليه فى ملابسهم السود .. كان يبكى ولا يمسح دموعه فقد توقفت يداى من الحركة ...

قطعا أنه أحس بقلبه ، احس بالصدمه وأن لم يسمع بهـــا صراحه ...

ومات ، ذات مساء فجأة ، دون أن تكن هناك إى علامه على الموت وذهبنا نودعه . وذهبت هذه المرة إلى القبر . لأول مره ، شاهدت القبر يفتح والجثمان يدخل ثم يغلق عليه وينفض الناس ويترك فى وحدته .

واهتزت مشاعرى المنزل الاخير . ماذا فى هذه الحياة بعد ذلك التعب والعمل والنصب إلا هذا السرداب المبنى بالحجارة البيضاء ينزل اليه بالسلالم ثم يغلق بعد أن يودع الجسد فى الأرض ، وتوضع المونه الطرية . ثم يقف الشيخ ليقرا « القرآن » ويلقن الميت يقول للملائكة الذين سوف يسألونه عن دينه وعقيـــدته ثم يركب الجميع سياراتهم

ويخلفونه وحده ، لا أنيس ولا نور يضيء اللحد الضيق الا العمل الذى قدمه فى ايام الحياة ..

ولكن الموت ليس فى الحقيقه الأسفر طويل ، ولست الحياة إلا محطة انتظار بعضنا ينتظر فيها قليلا ويركب أول قطار وبعضنا يتريث ثمه ولكنا جميعا سنركب القطار إلى المحطة الأخيره ، وسنلتقى هناك بمن سبقونا ..

لما رايت مصبه ، تمنيت أن ارى منبعه .

هنا تختلط ماء النهر بماء البحر . ولـكنهما لا يمتزجان، إذ بينهما برزخ لا يبغيان ، بعض الذين ذهبوا إلى النبع ، ورأوا الصخور الـكبار التى تسكب السماء فوقها دموعها الغزار . سجدوا شكراً لواهب الماء .. ومجرى النيل .

أحببته فى كل مكان . لأنى ولدت فوق شاطئه . وتربيت فى احضانه ، وعندما تضيق بى الحياة فى القاهره ، اهرع اليه ، واقف على شواطئه ، واعـــلاه . واسعد بتلك الموجات المشرقه المتلاحقه ، وهى قادمه من الجنوب ..

رايته فى دمياط ، ورايته فى القناطر ، ورايته فى ديروط . والنخيله ونجع حمادى ، والاقصر ..

رأيت النيل وعلى ضفافه الاكواخ المتناثرة فى الريف ، رأيته وهو يشق المزارع والمروج . رايتة وعلى ضفافه القصور العالية الباذخة ، رايتة هناك حيث قوارب الصيد : ورايتة هنا حيث مماعات الحالمات ..

أحبة عندما يهدأ فتفيض صفحته دعة واشراقا :

أحبة فى مطلع الشمس ، وتالق القمر وفى الاصائل والاسحار .

أنه « النيل » يستحق منا أكثر من الحب .

*

كانت رحلة حلوة هذه التى قطعتها اليوم جريا وراء النيل .. هذا العملاق الذى فاض فغمر الجزر واكتسحها ...

كانت عربة الجريدة تنطلق بى من حلوان إلى وراق العرب . حيث سجلنا حديثا مع هذا الكائن القوى الذى طغى على المنازل والجزر، واغرق المحاصيل وغمر الشواطئ . اربع ساعات والعربة تجرى بنا من الشمال إلى الجنوب ونحن ننظر إلى يده الضخمة وقد بطشت بالشواطىء وعلت على الكبارى .

لقد بلغ غاية الزيادة . غطى الشواطئ بمائه ذى اللون الأحمر وبدت الجزيرة تبعث السرور إلى النفس ممتزجا بالاعجاب بحيوية هذا النهر العظيم .

أنى أحبه واجد فى النظر اليه زاداً روحيا يغذى نفسى ويفتح اقامتها ويبعث إلى نوعا من الهناء ..

انى حس بانه صديق كالقمر والعطر والجمال .

لن أنسى ذلك اليوم ، يوم ان شاهدته لأول مرة ، كانوا يطلقون عليه فى بلدنا « البحر الكبير » ويشيرون دائما ناحية المشرق !

كان يهابه ويخشاه ، ويربط بينه وبين الشمس ، هذا الإله الشاب المندفع فى طريقه ، فلما أتيح له أن يراه ؛ وهو منطلق فى أناه وفى جبروت

والمراكب تمخر عبابه ، والنـاس على سواحله ينعمون به ، ويفيئون إلى ظله ، ويقيمون الحدائق ، ويزرعون الحقول ، ... خفق قلبه ومضى يحلم !

إن له فى الصباح صورة الحنان

وفى الأصيل صورة الجمال

وفى الغروب صورة الحزن

انه يملأ النفس بالاشراق والهناء ، يروع ويأسر ويأخذ بالألباب ،

ولـكنه وحده ليس إلا اطاراً لصورة . .

صورة قلبين يتناجيان . . ، هنالك يمطيهما النيل سره وعهده !

- ٢٢ -

وقفت أمس على سور الأزبكية ساعة أقلب الكتب القديمة طال البحث وكادت الشمس أن تحرق رأسى . هذه عادة أفعلها كلما وجدت فى جيبى بعض القروش . . اننى أشتاق كثيراً إلى هذه الوقفة ، أتسكع فى مشاهدة الكتب القديمة وأشترى منها دائما وكثيراً ، ولعل بعض المراجع التى عندى مشتراه من فوق هذا السور . . وهناك من الباعه مثقفون يعرفون قيمة كل كتاب . قال لى أحدهم أنه قارىء مطلع وأنه يعرف أغلب كتاب البلد .

والواقع أن العقاد واحمد أمين وزكى مبـــارك عاشوا عالة على سور الأزبكيه وأغلب المصادر التى يعتمدون عليها مجموعة من عند هؤلاء الكتيبة الذين كانت لهم أماكن كثيرة عند الأزهر وسيدنا الحسين وتحت الربع .

وتجد على السور أشياء طريفة حقا . كتاب لطه حسين تشتريه بقرش صاغ . وتجد كتباً عليها تعليقات مؤلفيها . وتجـد كتابا مهدى من مؤلفه إلى صـديقه الذى باعه هو الآخر .

- ٢٣ -

كان منظراً مثيراً ، ملأ نفسى انقباضاً . رأيت موتسكلا ينحرف فى اتجاهه .. فوق بقعة من الدم وإلى جوارها ورقة جريدة مملوثة . وهناك إلى الحائط ورق ملفوف فى داخله شىء . .

لاشك انه جثة الرجل الذى كان يركب الموتسكل .. فى لحظة واحدة صدمته عربة وهو ينحرف فى الطريق فانتهت حياته . هذه الصحيفة التى كان يقرأها منذ ساعة أصبح جدثاً له . لقد كان فى طريقه إلى بيته فالساعة الآن الواحدة وأن أبنائه وزوجه سينتظرون طويلا قبل أن يعلموا أنه قد أنهى حياته . سيحملونه إلى هناك .. حيث يبحثون فى جيوبه عن اسمه وعنوانه ثم يخطرون أهله الذين سيقع عليهم النبأ وقع الصاعقة : . كان يندفع مسرعاً وينحرف حتى يصـــل مبكراً إلى منزله . لعل أمراً هناك كان ينتظره . لعل بعض مشـاغله المتعدده كانت تدفعه وهو يعلق الآمال على النتائج التى سيحصل عليها . أو المال الذى سيصل إلى يده . .

كل هذه الآمال والأوهام والمطامع التى كانت تجرى فى خياله عبر السنوات والشهور قد انطوت فى لحظة . قد انقطعت فى صدمة واحدة لعلها أصابت رأسه فأوقفت فكره عن الانطلاق وعيناه عن النظر . .

لقد صمت هذا الكيان الذى كان منطلقاً فى الحياة . توقف هذا الإنسان . أوقفه ذلك القاهر الجبار : الموت الذى يطوف بنـا فى كل لحظة ثم يضرب ضربته وفق حكمة عليا لا نعرف مداها ولا مرماها .. لعله الخير فعل . ربما كان منطلقاً ليظلم أو يغدر أو يقتل .. لعله كان ذاهباً إلى أمر لا يريده القدر الذى يفرض ما يريد .

لقد خرج من بيته فى الصباح بعد أن ودع أولاده ووعدهم الحلوى .. ومضى يعمل تستحثه العودة . ليلقى مصرعه فى هذا المكان وينتهى أمره فلا يعود بعد إلى عمله ولا يلقاه أبنـائه كل صباح ولا يعود إليهم حاملا الهدايا واللعب .

إنه القدر القادر يضع بعض الأسماء الحية فى قوائم الموت ويبعث الأسماء الميتة إلى سجلات الخلود .

.. اختفى الطفل فأحدث فى البيت هزة وفزعا .. ملأ النفوس بالألم والعيون بالبكاء والقلوب بالأسى ...

وتضاربت الأخبار أين ذهب .. أما الرجال فذهبوا يسألون فى مخافر الشرطة والمستشفيات وبوليس النجدة .. أما النساء فجلسن يندبن .

وعاد الرجال آخر الليل واليأس يقطع قلوبهم . لم يجدوه . لا فى الأحياء ولا فى الأموات .. إذن أين ذهب .
وكانت النساء يترقبن وصول الرجال بصبر بالغ ليعرفن الحقيقة ..

وما من خطوة فوق السلم أو طرقة على الباب إلا وكانت تملأ القلب الذى كان يتساءل ، ترى هل عاد ..

مرت ليلة وطلع الصباح التالى مقبضاً موحشاً .. واصل الرجال البحث حتى تورمت أقدامهم وواصل النساء البكاء حتى تقرحت عيونهن .. كانت كل حركة تثير نفوسهن .. إن جاء الأكل امتنعوا وقالوا ترى هل يأكل .. أم أنه جائع وإن أمطرت السماء اشفقوا أن يكون قد حل هذا المطر فوق كتفيه .

أنها حيرة يبلغ الألم فيهـا مداه . أنه أقسى من ألم الموت . لأنه ألم مشوب بالأمل فى عودة التائه ..

إن النفس تـكون فى حالة من الإشفاق بالغـة مثيرة .. أنها تتوقع أن تسمع بين آن وآن خبراً قد يكون الحياة وقد يـكون الموت .
والنفس تميل بطبيعتها إلى أن تسمع نبأ الحياة وهى تتمناه وتشغف به .. ولـكنها تدخل أحياناً فى مرحلة يأس طويل عميق وتتوقع أن تسمع نبأ الموت .. وقد يطول الأمر يوماً وأياماً فإذا النفس ضائعة بهذه الخبرة ، لا هو فى الأحياء ولا فى الأموات ولا فى العـائدين .. أين هو ، وتتمنى النفس أن تسمع أى نبأ فتنحل العقدة .. وتمر ليلة أخرى فإذا النفوس قد بلغت غايتها من الألم والضيق .. والأسى .

فقد تورمت أقدام الذاهبين فى كل مكان يبحثون .. وخفت حلوقهم . أنهم لا يأكلون ولا يشربون . وما من طفل يقابلهم إلا ويحملقون فيــه لعله هو ..

وما من واحد يتحدث إليهم عن مكان إلا يذهبون إليه وما من وسيلة تعمل إلا يسلـكون السبيل إليها .. وقد يحاولون الاحتفاظ بطابع الابتسام أو التفاؤل أو عدم المبالاة ولـكنهم يتـكلفون المشقة لذلك دون جدوى ..

وبينما النفوس قد ملأها الهلع وتوقعت الموت .. يدخـل الطفل من الباب فجأة .. ليروى قصة أقرب إلى الخيال .

وهنا تهتز النفس هزة عميقة . ليست هى الفرحة ولكنها شىء آخر شىء فيه رد الفعل لعملية الكبت وطى الأفكار السوداء والمقاومة والبحث.. ان النفس تحس بانخفاض عميق فى مقوماتها وقواها ومعانيها . « إحساس فيه خليط من الفرحة الغامرة والإشفاق من السوء الذى كان هو المصير وهو استبطان لعملية اجترار طويل لأوهام وأهواء وخيالات مظلمة فيها صورة الموت والانتحار وصدمة الترام والهروب وفيها الأسى واللوعة على فقدان قد يطول أمده دون أن تعرف نهايته .. أو موت وما بعده من أسى يعمم البيوت وظلمة تملأ النفوس وتطول إقامتها . .

كل هذه الصور والخيالات التى تجمعت فى النفس تريد أن تذوب ولكنها لا تستطيع أن تختفى فجأة فهى تهز النفس والجسم معاً فتحدث هذه الحالة من الانخفاض والتحدير حتى تجد سبيلها فى ظل الهمود إلى الهرب والانطفاء . .